الخطاب السير ذاتي في كتاب "ماذا علمتني الحياة؟" لجلال أمين – دراسة في جمالية الأنساق الثقافية

د. عبدالله محمد كامل عبدالغني
مدرس الأدب العربي الحديث
كلية الآداب – جامعة دمياط
abdoallh198239@yahoo.com

doi: 10.21608/jfpsu.2023.165858.1233

الخطاب السير ذاتي في كتاب "ماذا علمتني الحياة؟" لجلال أمين – دراسة في جمالية الأنساق الثقافية

مستخلص

يقارب هذا البحث جمالية الأنساق الثقافية في سيرة جلال أمين الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، في محاولة للوقوف على كيفية تضافر هذه الأنساق لإقامة تشكيل مميز عُرف به الكاتب عبر خطابه السردي في سِيره الذاتية المتعددة، وانطلقت الدراسة من منهج النقد الثقافي، الذي يُولي الأنساق أهمية كبرى في استجلاء جماليات النص الأدبي؛ وفهمه بصورة أعمق وأوضح، وذلك في إطار متسع من التأويل والكشف عن آلية تشكُل هذه الأنساق ودقة توظيفها.

وقد بدأ البحث بتقديم نبذة عن السيرة الذاتية، وموقعها من الخريطة الأدبية بشكل عام، ثم قدّم البحث مقاربة للمصطلحين: الأنساق الثقافية – النقد الثقافي، وأتبع ذلك بالوقوف على الأنساق في السيرة الذاتية محل الدراسة، وكان ذلك من خلال خمس نقاط، أولاً: أثر نسق الرصد والتأمل في صياغة الخطاب الاجتماعي في السيرة الذاتية، ثانيًا: أثر النسق المعرفي في تكوين الخطاب الثقافي، ثالثًا: نسق التصريح والخطاب السياسي، رابعًا: النسق الأكاديمي والخطاب الاقتصادي، خامسًا: الدلالة النسقية للمكون اللغوي، وسعى البحث لبيان الأثر المباشر وغير المباشر لتلك الأنساق في تشكيل عموم الخطاب السير ذاتي عند جلال أمين.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، الأنساق الثقافية، السيرة الذاتية، ماذا علمتني الحياة، جلال أمين.

Autobiographical Discourse in Jalal Amin's Book "What Life Has Taught Me?": A Study on the Aesthetic of Cultural Patterns

Dr. Abdullah Muhammad Kamel Abdul Ghany
Lecturer of Modern Arabic Literature
Faculty of Arts, Damietta University

Abstract

The present paper explores the influence of the Cultural Patterns on Jalal Amin's autobiography "What Life has Taught Me?". It investigates how these cultural patterns shapes Amin's distinctive narrative style. The analytical scrutiny of this research tackles the cultural patterns presented in the text concerned in this study through a cultural criticism approach. Tackling the cultural patterns through a critical criticism approach, the present researcher presumes, would be of a great benefit, adding richness, depth and insight to the analytical debate.

The study presents a synopsis of Amin's aforementioned autobiography exploring its stance on the literary map in general. It also attempts a joint analytical study of both the cultural patters and criticism, while scrutinizing the diverse cultural patterns presented in the concerned autobiography of this research, which was through five points: First, the influence of monitoring and reflection patterns on formulating social discourse, second: the impact of cognitive pattern on the composition of cultural discourse, third: political discourse and declaration pattern, fourth: academic pattern and economic discourse, fifth: the systemic connotation of the linguistic component. Furthermore, it inspects the direct and indirect influence of these patterns on Amin's autobiographical discourse.

***Keywords*:** Cultural Criticism, Cultural patterns, Autobiography, What Life has Taught Me? Jalal Amin.

مقدمة

يتميز أدب السيرة الذاتية بسمات تجعله يتلاقى مع أجناس أخرى عديدة، إذ يحمل بذورًا من أجناس أدبية مختلفة، فيأخذ من المقال وأدب الرحلة، وكذلك نجد فيه ملامح الرواية والقصص القصيرة، لتخرج السيرة الذاتية مزيجًا من ذلك كله، في محاولة من الكاتب ليعبر عن ذاته ورحلة حياته، من خلال إبراز تجربته الخاصة في عمره المنصرم.

تعد السيرة الذاتية كتابة التاريخ الذاتي للمرء نفسه، وسردًا لكل مراحل الحياة السابقة من خلال عرض الوقائع والأحداث، وحكاية عن أيام الطفولة والشباب والكهولة وما جرى فيها، وما خلفته من آثار عبر بوحٍ تأملي يقف الكاتب فيه أمام نفسه، لتصبح السيرة الذاتية "ترجمة حياة إنسان كما يراها هو"(١).

وتمثل السيرة بوصفها عملاً إبداعيًا خاصًا وثيقة للتجربة الإنسانية، ومحاولة لفهم الوجود والعالم المحيط، وإبرازًا لرؤية معينة يبتغيها الكاتب، من خلال تحويله اللغة إلى شأن ذاتي أو شخصي بقدر ابتعاده عن الغيرية والآخر، فيقدم الكاتب بلغته الخاصة تسجيلاً لحياته الشخصية، وينطلق معبرًا عن فهمه ومعيشته وتصوراته، مقيمًا لحظات كتابية خالصة له لا يزاحمه فيها أحد، ويصبح هو المرجع الوحيد لدلالة الكلمات والسياقات، ويبرُز الدافع في تشييد السيرة الذاتية حينئذٍ "كدافع خلّاق أي قصصي، فيختار الأحداث والتجارب من حياة الكاتب، التي تشكل معًا نسقًا متكاملاً"(٢).

وتؤدي القصدية دورًا مهمًا في أدب السيرة الذاتية، إذ يحاول الكاتب قول ما لا يستطيع كتابته في إنتاجه الآخر، فيتوسل بالكلمات لفهم وجوده وكينونته، وتتخذ ثنائية الكلمة والوجود شكلاً مغايرًا غير مألوف كما قال جان جاك روسو في اعترافاته: "أبدأ الآن مشروعًا لم يُسبق من قبل، ولن يوجد قط له مثيل، وأحب أن عرض على إخواني في

١ - عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان – الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، القاهرة ١٩٩٢، ص٢٧.

٢ - نورثورب فراي: تشريح النقد، ت (محمد عصفور)، ط١، منشورات الجامعة الأردنية – عمان ١٩٩١، ص٤٠٦.

الإنسانية كيف يبدو الإنسان في أصدق صور فطرته، وهذا الإنسان هو أنا! أنا وحدي أعرف مشاعر قلبي، وأنا لم أُخلق على غرار أي إنسان من أولئك الذين رأيتهم"[١].

لذلك تعد السيرة الذاتية نوعًا خاصًا من التراجم، يسرد الكاتب من خلالها حياته بقلمه، ولكن السيرة الذاتية في الوقت ذاته "ليست حديثًا ساذجًا عن النفس، ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر"[٢]، وليست كذلك مجموعة متناثرة من الأحداث والأخبار المتفرقة، بل لا بد أن تحوي نسقًا وخطةً للبناء، فتُرسم بهذا النسق حدودها، وتُشكل بالخطة بنيتها.

ولا بد أن تظهر دوافع الكتابة وأهدافها في السيرة الذاتية، فبجانب أدبية السيرة وفنيتها لا بد أن يتضح هدف الكاتب من تدوينه لوقائع حياته، وتسجيله هذه الحوادث التي مرت به خلال عمره، وإلى هذا يشير كولن ولسن بقوله: "إن ما أرمي إليه في هذه الصفحات هو أن أوضح بقدر ما يمكنني من الأمانة أهداف عملي الأساسية ودوافعه، وأن أربطها بأحداث معينة من حياتي الخاصة، حيث تقوم بينها مثل تلك الرابطة، وليس المقصد من هذا الكتاب أن يكون ترجمة عادية أو رسمية، فإن أحداث حياتي لا تثير لدي ما يكفي من الاهتمام لكي تدفعني إلى محاولة شيء من هذا القبيل، إلا حينما يمكن أن يستخدم التصوير فكرة معينة"[٣].

وتستمد السيرة الذاتية فنيتها من وجود دوافع واضحة لكتابتها من جهة، ومن جهة أخرى وجود تشكيل فني مميز لبنيتها، وأسلوب أدبي قوي يُظهرها، فعن طريق البناء "المرسوم الواضح يستطيع الكاتب أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التي مرت به، ويصيغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن يُنحي جانبًا كثيرًا من التفاصيل والدقائق التي استعادتها ذاكرته، وأفادها من رجوعه إلى ما قد يكون لديه من يوميات، ووسائل ومدونات تعينه على تمثيل الحقيقة الماضية"[٤].

---

١ - جان جاك روسو: اعترافات جان جاك روسو، ت (محمود بدر الدين خليل)، ط١، بيت الياسمين للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢٠، ص١٥.

٢ - إحسان عباس: فن السيرة، ط٤، دار الثقافة، بيروت١٩٧٨، ص٩٨.

٣ - كولن ولسون: رحلة نحو البداية – ترجمة ذاتية ذهنية، ت (سامي خشبة)، ط٢، دار الآداب، بيروت ١٩٧٩، ص ص ٥ + ٦.

٤ - يحيى إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٥، ص٤.

وهناك عدة سمات فنية يتميز بها أدب السيرة الذاتية، منها: دلالة السيرة الذاتية على شخصية كاتبها، وميوله وأفكاره – الصدق والصراحة والموضوعية – جمال الأسلوب وفنيته – تصوير حياة كاتبها – بيان الدوافع والأهداف – التصريح أن هذا العمل هو سيرة ذاتية أو ترجمة للكاتب وسرد لمراحل حياته، وبهذه السمات الفنية ترتقي السيرة الذاتية لتصبح أدبًا رفيعًا ذات بناء فني محكم، وليست مجرد ثرثرة فارغة، أو حكي للأحداث المتناثرة التي مرت بإنسان ما، إن السيرة الذاتية يجب أن تمتاز بجانب "حرفي أيضًا، فالسيرة الذاتية التي تفتقر إلى الجانب الحرفي لا تعود سيرة ذاتية، إذ لا بد لها من أن تصف حوادث حياة الفرد كما حدثت تقريبًا، فحرفية السيرة الذاتية تتمثل في وفائها لما هو قائم؛ ولما كان قائمًا، ولما ينبغي أن يكون عليه موضوع الوصف، فالسيرة الذاتية لا تصف الماضي والحاضر فقط؛ بل المستقبل القريب كذلك"[١].

وقد أورد الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم في كتابه (الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث) بعض خصائص السيرة الذاتية:

. يعتمد كاتب السيرة الذاتية على المعاناة في تذكر الحقيقة، ومحاولة نقلها نقلاً أمينًا على نحو ما حدث في واقع الحياة.

. يصور كاتب السيرة الذاتية كيفية تفاعله مع مختلف الأحداث والتجارب الحياتية والمجتمعية، في تعاقب زمني متواصل، ومن الضروري أن يستعين بعناصر الفن الروائي لتفسير حياته.

. تقوم السيرة الذاتية على وحدة البناء وتطور الشخصية، وقوة الصراع، وتعتمد في كليتها على الحقيقة التاريخية والسرد الأدبي، وتمثل تعبيرًا ذاتيًا يعتمد الصدق، وقوة الشعور بالأفكار والمواقف المؤثرة، ومنعطفات التحول في الشخصية.[٢]

وتقوم فكرة هذا البحث على تتبع الخطاب السير ذاتي عند المفكر والكاتب جلال أمين*، في كتابه الأول عن سيرته الذاتية، إذ لم يقتصر إبداعه السير ذاتي على مُؤَلف

١ - ج . هيو سلفرمان: نصيات بين الهرمنوطيقا والتفكيكية، ت (حسن ناظم – علي حاكم صالح)، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ٢٠٠٢، ص١٥٣.

٢ - يحيى إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مرجع سابق، ص٨١ وما بعدها.

* كاتب ومفكر وأكاديمي مصري (١٩٣٥ – ٢٠١٨)، تخصص في علم الاقتصاد وما يتعلق به من علوم اجتماعية وسياسية وثقافية، ويعد كتاب (ماذا حدث للمصريين؟) واحدًا من أشهر كتبه، حيث قام بتتبع الحالة الاجتماعية والثقافية

واحد بل تعداه إلى ثلاثة كتب تصنف جميعها ضمن إطار السيرة الذاتية، فقد بدأ جلال أمين بتدوين سيرته الذاتية عام ٢٠٠٧ من خلال كتابه الأول (ماذا علمتني الحياة؟)، ثم أصدر كتابًا آخر يمكن أن يكون جزءًا مكملاً للأول، كما يمكن أن يستقل عنه – كما صرح هو – في مستهل عام ٢٠١٠ وعنوانه (رحيق العمر)، وكتب في عام ٢٠١٥ كتابًا ثالثًا يمكن أن يُعد من أدب السيرة الذاتية وهو (مكتوب على الجبين – حكايات على هامش السيرة).

إن الهدف الرئيس من هذا البحث هو الوقوف على جمالية الأنساق الثقافية التي شيدت هذا المنجز السير ذاتي، وساعد في تأصيل هذا الهدف أمران، أولهما: نشأة جلال أمين في بيئة أدبية عُرفت بالإبداع، واشتهر الأب (أحمد أمين) بالترجمة لحياته كذلك في كتابه (حياتي)، وكان لهذه التنشئة الأدبية في بيت أحمد أمين أثرها البالغ – وكذلك سيرة أبيه الذاتية المكتوبة – في أن يقتفي الابن أثر والده فتوالت سيرته الذاتية المكتوبة واحدة بعد الأخرى، وكان لا بد من تتبع أثر هذه النشأة وتلك البيئة في كتابة هذه السير الذاتية، ورصد ما لهذه العلاقة الأبوية من أثر مباشر في بناء هذا الخطاب عند الابن، وذلك باعتبار الأب ليس شخصًا عاديًا؛ بل هو ذلك الأديب الفذّ الذي كتب عن فجر الإسلام وضحاه، والكاتب الذي ترك بصمة واضحة في أدبنا العربي الحديث.

الأمر الثاني الذي أصّل هدف هذه الدراسة، هو حالة الغنى والثراء الحياتي والفني في السيرة الذاتية لجلال أمين، فقد تقلب الرجل بين عدة وظائف كان أبرزها عمله في المجال الأكاديمي والجامعي، وتنقله بين مصر وإنجلترا والكويت وأمريكا، وعمله في جامعات حكومية وأخرى غير حكومية، وزيارته كذلك لبلاد كثيرة بشكل أثرى تجربته

للمصريين خلال نصف قرنٍ من الزمان من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٩٥، وهو الابن الأخير من ثمانية أولاد للكاتب المعروف (أحمد أمين).

تخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٥٥، ونال درجتي الماجستير والدكتوراه من كلية الاقتصاد بجامعة لندن، وعمل بعد ذلك أستاذًا للاقتصاد في أكثر من جامعة، فقد عمل أولاً كأستاذ للاقتصاد في جامعة عين شمس من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٤، ثم شغل منصب مستشار لصندوق التنمية الكويتي وذلك من عام ١٩٧٤ حتى عام ١٩٧٨، ثم عمل كأستاذ زائر في جامعة كاليفورنيا وذلك لمدة عام واحد ١٩٧٨ – ١٩٧٩، وأخيرًا شغل منصب أستاذ في علم الاقتصاد في الجامعة الأمريكية بالقاهرة من عام ١٩٧٩ وحتى وفاته.

أسهم جلال أمين بمؤلفاته في مجالات عديدة، فكتب في التحليل الاجتماعي، والثقافة، والاقتصاد، والسيرة الذاتية، ونال عدة جوائز عرفانًا وتقديرًا لإسهاماته المتميزة، ومؤلفاته الكثيرة والقيمة.

الشخصية والحياتية، وجعلته منفتحًا على الكثير من الآراء والأفكار، كما أن وفرة إنتاجه الأكاديمي الذي أنتجه جعل له أسلوبه الأدبي المميز، ناهيك عن إجادته للغة الإنجليزية بشكل مكّنه من تأليف كتب كثيرة بها، والتدريس بها كذلك، وأهلته من جهة أخرى ليطلع بصفة مستمرة على أحدث الأفكار والنظريات في الغرب وأمريكا، كل هذا جعل من تجربة جلال أمين تجربةً ثرية وفريدة حدّ الإمتاع، وغنية بالمواقف والأشخاص والأفكار التي يجب أن تدون وتوثّق، الأمر الذي دفعه لكتابة سيرة ذاتية مرة بعد أخرى.

تحاول هذه الدراسة إبراز جماليات السيرة الذاتية عند جلال أمين؛ بمحاولة فهم آليات تشكل خطاب الكاتب من خلال الأنساق، وذلك "بتحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره وتسويقه – بغض النظر عن عيوبه النسقية – إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه"[١]، وستنظر هذه الدراسة للخطاب السير ذاتي عند جلال أمين بوصفه خلاصة تجارب وعصارة أفكار، وتوثيقًا لمبادئ حياة طويلة أربت على الثمانين، في محاولة لفهم النص السير ذاتي لديه "من حيث ما يتحقق فيه، وما يتكشف عنه من أنظمة ثقافية، فالنص هنا وسيلة وأداة، وحسب مفهوم الدراسات الثقافية ليس النص سوى مادة خام يستخدم لاستكشاف أنماط معينة، من مثل الأنظمة السردية والإشكالات الأيديولوجية وأنساق التمثيل".[٢]

سيسعى البحث بشكل حثيث إلى فهم جمالية الأنساق التي تضافرت بشكل ديناميكي متفاعل، لتقيم مجموع الخطابات المُشكلة للبناء السير ذاتي عند الكاتب، هذا البناء الذي ينبض بالواقعية والحيوية المستمدة من قدرة الكاتب الفذّة على الرصد والتحليل، فبجانب تخصصه الأكاديمي في الاقتصاد؛ نراه متمكنًا من رصد المتغيرات الاجتماعية التي تطرأ على المجتمعات خلال فترات زمانية محددة.

واشتهر الكاتب – لذلك – بسلسة كتبه (لماذا)، التي تتميز بحالة الدقة في تشخيص ورصد تلك المتغيرات الحادثة، هذه الكتب هي: (ماذا حدث للمصريين: تطور المجتمع المصري في نصف قرن ١٩٤٥ – ١٩٩٥– ماذا حدث للثورة المصرية – ماذا حدث

١ - عبدالله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ٢٠٠٥، ص٨.
٢ - المرجع السابق: ص١٧.

للثقافة في مصر)، وليست سيرته الذاتية ببعيدة عن هذا الخطاب التحليلي المتأمل، والراصد لما حدث من تغييرات اجتماعية وثقافية وسياسية، فقد حفلت سيرته الذاتية بهذه التحليلات والرؤى الراصدة، وأتت بتأثير نسقي متعدد الاتجاهات، يتعين علينا أن نرصدها ونتتبع أثرها في تشكيل الخطاب السير ذاتي لديه.

وقد رجع البحث إلى بعض الدراسات السابقة مستفيدًا منها، وقد سبق تناول السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) من خلال دراستين سابقتين، لكن أيًا منهما لم تنظر إلى هذه السيرة من منظور ثقافي يتتبع الأنساق المشكلة لها. كما توجد بعض الدراسات الأخرى التي أصَّلت منهج النقد الثقافي من خلال تناولها لهذه النظرية النقدية، وأفاد منها البحث بصورة كبيرة، وفيما يلي مسرد للدراستين الخاصتين بكتاب "ماذا علمتني الحياة؟":

١. صورة المجتمع من خلال السيرة الذاتية لجان ديتور وجلال أمين: زهرة كمال حلمي، مجلة البحث العلمي في الآداب، جـ ٤ – ١٣ع، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية – جامعة عين شمس ٢٠١٢، ص ص ١١٥٧ – ١١٧٨.

كُتب هذا البحث باللغة الفرنسية، وحاولت الباحثة من خلاله تحديد صور المجتمع المرسومة في السيرة الذاتية عند كاتبين مختلفين، فاختارت السيرة الذاتية لجان ديتور (جانو، مذكرات طفل)، وسيرة جلال أمين (ماذا علمتني الحياة؟)، وسعت الدراسة للإجابة عن سؤال مهم: هل كان العملان مرآة عاكسة للمجتمعين الفرنسي والمصري؟

وتتبعت الدراسة المظاهر الاجتماعية من عادات وتقاليد وسلوكيات في السيرتين، وأقامت الباحثة مقارنة بين نمط المجتمعين في هذه المظاهر، وتوصل البحث إلى قدرة الكاتبين على مزج الأحداث الشخصية وما يخص الكاتب؛ بالحياة الاجتماعية ومظاهرها في كل مجتمع على حدة.

٢. فاعلية المتكلم وصورة الذات: بحث مستل من رسالة دكتوراه بعنوان (السيرة الذاتية الفكرية: دراسة في البنية السردية)، محمد حسن عبد الباقي الحداد، مجلة كلية دار العلوم، ٥٩ع، جامعة الفيوم ٢٠٢١، ص ص ٧٥ – ١٠٢.

تتبع هذا البحث الدور الوظيفي لعتبة العنوان في تجسيد إحساس الذات وتفردها، وخصوصيتها عند كاتب السيرة، وأقام البحث مقارنة – في هذا الصدد – بين السيرة الذاتية

لعبد الرحمن بدوي (سيرة حياتي) وسيرة جلال أمين (ماذا علمتني الحياة؟)، وأكدت الدراسة على تضخم الذات واستعلائها في (سيرة حياتي)، وعلى السعي الحثيث لتميز الذات ومحاولة إثبات تفردها في (ماذا علمتني الحياة؟).

وبيَّن البحث كذلك مدى توافق الذات مع الآخر وفق أيديولوجيتها وقيمها الفكرية، فتجلت الذات عند بدوي معتنقة للوجودية القائمة على الحرية الفردية، بينما عند جلال أمين قائمة على مبادئ الاشتراكية والمنطقية الوضعية، وكان تحرك الذات نابعًا في الأساس من خلال هذه المبادئ الداعمة للجانب الاجتماعي.

بين المصطلح والمنهج

تمثل الأنساق الثقافية Cultural Patterns الركيزة الأساسية التي تقوم عليها مقولة النقد الثقافي Cultural Criticism، وقد تبلورت نظرية النقد الثقافي في الغرب تأثرًا بالحداثة وما بعد الحداثة، وانتشرت البحوث والدراسات الثقافية مع مدرسة فرانكفورت الألمانية، متأثرة بالدراسات الاجتماعية والسوسيولوجية واستفادت من البنيوية وما بعدها، ثم تشكلت ملامح النظرية على يدّ الناقد الأمريكي (فانسان ليتش) في كتابه القيم (النقد الثقافي في نظرية ما بعد الحداثة) عام ١٩٩٢.

وقام الناقد (عبدالله الغذامي) بدور رائد في نقل هذا المنهج إلى أوساط الثقافة العربية، من خلال كتابه (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية)[١]، وذلك عام ٢٠٠٠، وقد حدّد الغذامي في كتابه مصطلحات هذه النظرية، مبينًا ماهية النسق ووظائفه، ومطبقًا على نماذج شعرية وأدبية قديمة وحديثة، منطلقًا من النص الأدبي ليستكشف أنساقه الثقافية التي تشكله، أي أنه من خلال منهج النقد الثقافي ينطلق إلى المحيط الخارجي باعتبار أن النص انعكاس للاجتماعي والثقافي والسياسي والأيديولوجي، فالنص بهذا المفهوم يقدم رسائل ثقافية خالصة، ومن ثَمَ يصبح – بسياقه الثقافي "ليس مجرد ألفاظ ساكنة، وإنما متوالية لا نهائية من المعاني لأنه يتصل بثقافات أخرى"[٢].

١ - جميل حمداوي: نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، ط١، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا ٢٠١٦، ص٨٠.

٢ - عبدالفتاح أحمد يوسف: استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي – نحو وعي نقدي لقراءة ثقافية للنص، مجلة عالم الفكر، مجـ ٢٣٦ – ١ع، الكويت، يوليو – سبتمبر ٢٠٠٧، ص١٧٩.

يسعى المنهج الثقافي إذًا إلى فهم أوضح للنص؛ من خلال ربطه بالحياة الواقعية، إذ تكشف هذه الأنساق الثقافية عن درجة وعي الكاتب بمحيطه الخارجي، والنظم التي تتحكم في تفاعلاته، وتعكس هذه الأنساق من جهة أخرى مجموعة الأفكار التي شكلت وعي الكاتب وأسهمت في إخراج إبداعه، بل وشكلت ثقافة الأديب نفسه، لأن "النظام الثقافي السائد في المجتمعات على مراحل تطورها، يقابله وعي معين هو الذي ينتج الخطاب، والخطاب يجسد الوعي والنظام الثقافي/ الاجتماعي معًا، والنظام الذي يشكل الوعي لا يبقى على حالة واحدة بحكم الزمن، فهو متغير ويرتبط بالتحولات التي تطرأ على المجتمعات وتراكم المعارف داخل الوعي، ليساعد على وجود خبرة معرفية تمكن الوعي من ممارسة فاعليته في نقد الثقافة ومساءلتها في صورة خطاب معرفي"(١).

ويستكشف النقد الثقافي كذلك – من خلال الأنساق المضمرة – مجموعة الإشارات التي يتضمنها الخطاب، لأن هذا الخطاب لا يصدر عن فراغ أو إلى فراغ، بل هو بنية نصية تتفاعل مع بيئة وتاريخ وثقافة، وقبل كل هذا مع ذات، وتصبح المنهجية النقدية الثقافية بهذا المفهوم عبارة عن "نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعًا لبحثه وتفكيره، ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها"(٢).

ولذلك فإن النظرة الثقافية للنص – بوصفها منهجًا نقديًا – تراه مجموعة من الأنساق المتضمنة "رموزًا وأفكارًا بدءًا من مادة النص المحسوسة، وصولاً إلى طبيعته التكوينية، ثم أثره التنفيذي، دون فصل بين هذه الثلاثية، مع ربطها بالواقع الخارجي وحركته الدائمة التي تحكمها ظواهر الاندفاع أحيانًا، والانفعال حينًا، والتذكر حينًا ثالثًا، ومن أهم آليات النقد الثقافي ؛ أنه يصعد بالفرد إلى أفق الجماعي، ومن ثم يسهل عليه ممارسة إجراءاته التطبيقية في ربط النص بالوقائع الثقافية، في إشاراتها المستقبلية أو الحاضرة أو التراجعية"(٣).

١ - المرجع السابق: ص١٨٧.
٢ - سعد البازغي – ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي – إضاءة لأكثر من خمسين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ٢٠٠٢، ص٣٠٥.
٣ - محمد عبدالمطلب: ذاكرة النقد الأدبي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٨، ص١٠٦.

وقد قدّم الغذامي رؤيته المركزة لمنهج النقد الثقافي، القائم على تتبع الأنساق المضمرة والمشكلة للنص، حيث يقول إن النقد الثقافي "فرع من فروع النقد النصي العام، ومن ثم هو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية، معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينضوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، وما هو غير رسمي وغير مؤسسي، وما هو كذلك سواء بسواء، ومن حيث دور كل منهما في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. وهو كذلك معني بكشف لا الجمالي – كما هو شأن النقد الأدبي – وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي / الجمالي، وكما أن لدينا نظريات في الجماليات؛ فإن المطلوب إيجاد نظريات في (القبحيات)، لا بمعنى البحث عن القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما المقصود بنظرية (القبحيات) هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي"[١].

ووفق منظور النقد الثقافي يتحمل النص نسقًا تستهدف القراءة الثقافية كشفه، بإعادة وضعه داخل سياقاته الاجتماعية، السياسية ... إلخ، وتجلية "حيل الثقافة في إدراج أنساقها عبر هذا النص أو ذاك، فيعمد النقد الثقافي عبر القراءة الجادة إلى كشف هذه الأنساق، وجعلها قيمًا ثقافية"[٢].

وليس معنى تبني النقد الثقافي لمقولة الأنساق أنه يلغي أو يهمل مناهج النقد الأدبي، بقدر ما هو مختلف عنها في الأدوات والوسائل، واختلافه في الأهداف كذلك، إذ يهتم بما وراء النص وما يكتنز بداخله، لذا يتطلب فهمًا أعمق من خلال ربط النص بسياقه وظروفه، ومؤثراته، وعن طريق هذا المنهج أيضًا يمكن الكشف عن الأخطاء الحضارية والمجتمعية المستترة وراء الظواهر الجمالية، باعتبار النص حادثة ثقافية، وبوصف الكلمات سلوكًا نفسيًا واجتماعيًا، وأن الخطاب لا يأتي إلا متفاعلاً مع البيئة المحيطة بثقافتها ومفاهيمها سلبًا وإيجابًا.

لذا؛ ستعتمد الدراسة القراءة الثقافية في تحليل السيرة الذاتية لجلال أمين (ماذا علمتني الحياة؟)، من خلال منظور ثقافي واسع يتجه إلى "النص يتأمله، بهدف ردّه إلى

١ - عبدالله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص ص ٨٣ + ٨٤.
٢ - أحمد المزاريق: جماليات النقد الثقافي – نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٩، ص١٧.

الأنساق الثقافية التي تدخلت في إنتاج خطوط الدلالة فيه، سواء تلك الخطوط الطولية التي تتحرك بالمعنى إلى الأمام، أو تلك التي تفسح الطريق أمامه، ومن هذه وتلك يتحقق ما نسميه المعنى التكاملي، وهذه الخطوط الطولية تتعانق مع الخطوط الرأسية التي تحفر في الدلالة للوصول إلى منابعها العميقة أو المضمرة، أي الوصول إلى الطبقات الثقافية المترسبة في هذه الأعماق"[١].

ستكون قراءتنا للخطاب السير ذاتي لجلال أمين؛ وتحديد سياقاته وأنساقه ذات المرجعيات المختلفة وفق مقولات النقد الثقافي، متوسلة برؤيته ومنطلقاته، عبر استبطان النص واستكناه تأويلاته، وتوخي كشف الدلالات المضمرة، ورصد تفاعلات أنساقه المختلفة، النابعة من تفاعل الكاتب مع البيئة المحيطة، والتجارب التي مرّ بها، والأفكار التي آمن بها أو اختلف معها، باعتبار النص السير ذاتي كغيره من الأجناس الأدبية؛ ذاكرة ثقافية واجتماعية تتداخل فيها عناصر الواقع مع المتخيل الأدبي، وتأتلف فيها الأنساق المضمرة الثقافية لتشكل جمالية نصية فريدة.

حول كتاب "ماذا علمتني الحياة؟"

من المهم هنا أن يتضح سبب اختيار الباحث للسيرة الذاتية الأولى (ماذا علمتني الحياة؟) أنموذجًا يتتبع من خلاله الأنساق الثقافية المضمرة، ثم نُتبع ذلك بشرح وافٍ لمحتويات هذه السيرة الذاتية مادة الدراسة.

يرجع اختيارنا لهذه السيرة الذاتية دون الاثنتين التاليتين لها إلى عدة أسباب، أولها: أنها أول سيرة كتبها المؤلف؛ ولم يكن يعلم – أو يخطط – أنه سيكتب غيرها بعد ذلك، ومن ثم فإنه قد اجتهد أن تحوي هذه السيرة الأولى معظم رؤاه وتجاربه، وأفكاره التي يود أن يقدمها للقارئ، كما أن مشروع كتابة هذه السيرة الذاتية الأولى امتدت إلى فترة طويلة كما ذكر في أول فقرة منها "**بدأت أكتب هذا الكتاب منذ عشرين عامًا، عندما كنت أقضي سنة في لوس أنجلوس أدّرس في إحدى جامعاتها**"[٢]، لذا فإن استقلالية هذا الكتاب بوصفه السيرة الذاتية الأساس لجلال أمين لا بد من وضعه في الحسبان، كما أن مكوثه

١ - محمد عبدالمطلب: القراءة الثقافية، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ص٢٠.

٢ - جلال أمين: ماذا علمتني الحياة؟، ط١، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٧.

على تدوينها فترة زمنية طويلة جعل منها سيرة شاملة، الأمر الذي يضفي مزيدًا من الاكتناز والثراء الدلالي والفني عليها.

أما ثاني تلك الأسباب: أن جلال أمين نفسه قد عدّ كتاب (رحيق العمر) جزءًا مكملاً للأول، لا بمعنى أنه يبدأ من حيث انتهى؛ ولكنه يسير بموازاته ومستقلاً عنه، كما أنه حاول فيه أن يتلافى عيوبًا أو نقدًا وُجه له حين صدر الكتاب الأول، يقول في (رحيق العمر) عن دوافعه في إصداره "**من الممكن اعتبار هذا الكتاب الجزء الثاني من (ماذا علمتني الحياة؟)، فهو استكمال له، ولكن ليس بمعنى أنه يبدأ من حيث ينتهي الأول، بل بمعنى أنه أيضًا سيرة ذاتية وأحاول فيه أيضًا أن أستخلص (ماذا علمتني الحياة)، هذا الكتاب يسير موازيًا للأول، فهو مثله يبدأ من واقعة الميلاد، بل وقبل الميلاد، وينتهي إلى اللحظة الراهنة ... من كثرة ما لم أذكره في كتابي الأول، لا لأنه لا يستحق الذكر بل لمجرد أنه لم يخطر ببالي ذكره وأنا أكتب ذلك الكتاب، فجلست لأدون ما فاتني وأرتبه**"[١].

إن منهج جلال أمين في كتاب (رحيق العمر) يعتمد على ذكر وقائع أكثر، وأحداثًا سقطت سهوًا منه في كتابه الأول، وبذلك يتميز الكتاب الأول عنه بكثرة التحليل والتأمل فيما كان يورده من أحداث، ذلك أن منهج (رحيق العمر) قائم على حكاية أحداث تكتنف جميع مراحل الحياة بصورة أساسية، وتدل عناوين الفصول دلالة مباشرة على ذلك (الجراح والطباخ – المدرسة النموذجية – حرب جلال – في جامعة لندن ...)، في حين نرى أن عناوين الفصول في السيرة الأولى (ماذا علمتني الحياة؟) تعبر بصورة أدق عن مراحل الحياة (طفولة – النشأة – الصبا ومباهجه – البعثة – العمل في الكويت ...)، وبذلك يكون الكتاب الأول أشمل في دلالته على السيرة الذاتية من حيث هي تناول لجميع مراحل الحياة، ورؤية الكاتب لها وما جرى فيها، الأمر الذي نراه متواريًا في (رحيق العمر)، في مقابل إفساح المجال أمام الوقائع والأحداث.

أما السبب الثالث فمتعلق بكتابه الأخير (مكتوب على الجبين – حكايات على هامش السيرة)، فمن الواضح من العنوان الفرعي للكتاب أنه كتاب معني – في المقام

١ - جلال أمين: رحيق العمر، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٠، ص ص ٩ + ١٠.

الأول – بسرد حكايات وقصص معينة جرت له في وقت ما من أوقات حياته، أو وصف شخصية قابلها أو عرفها، وهو بذلك يغاير الكتاب الأول، إذ لم يتقص مراحل حياة الكاتب المختلفة، بل يحتوي – فقط – على نتفٍ وحكايات متناثرة شكلت لغزًا أمام الكاتب في يوم ما من حياته، وحاول من خلال كتابه هذا أن يفك شفرة هذه الألغاز، يقول: "**من عاش مثلي ثمانين عامًا، لا بد يكون قد تعرف في حياته على عدد كبير من الناس رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء، من المتعلمين وغير المتعلمين، مصريين وأجانب ... إلخ، وعندما أستعيد في ذهني ما رسخ لدي من انطباعات عن هذا الشخص أو ذاك يعتريني العجب ... وجدت معظم هؤلاء (بل أكاد أقول كلهم) من الألغاز المستعصية على الفهم ... في هذا الكتاب حاولت أن أجمع أمثلة قليلة من كثير مما صادفته في حياتي من ألغاز بشرية، وتفسيري لبعضها**"[1].

لا يعد الكتاب الثالث بهذا المنهج المتبع في تأليفه كتابًا أصيلاً في السيرة الذاتية، بمفهومها الواسع المتتبع لمراحل حياة كاتبها، بقدر ما هو جمع حكايات عن أشخاص مثلوا لغزًا وتحديًا أمام الكاتب في يوم ما، ويتضح ذلك أيضًا من عناوين القصص (رجل يتحدى العالم كله – حمامة – أقاربي الإنجليز – شكرًا ساعي البريد – الأكاديمي الظريف ...).

من أجل الأسباب السابقة؛ استقر البحث على تتبع الأنساق في السيرة الذاتية الأولى لجلال أمين (ماذا علمتني الحياة؟)، بوصفها السيرة الأساس أو الأم، والسيرة المرجع التي وضع فيها الكاتب على مدى سنين طوال أربت على العشرين خلاصة فكره، وعصارة تجاربه، وأصول أفكاره ومبادئه خلال الحياة.

وقد وردت سيرة (ماذا علمتني الحياة؟) في إهداء وتمهيد ومقدمة وتسعة عشر فصلاً، تناولت حياة الكاتب منذ لحظة ولادته وما قبلها، حتى الفترة المعاصرة لصدور السيرة عام ٢٠٠٧، وبواسطة تأمل عميق وقلم شديد السلاسة والعذوبة؛ يحول جلال أمين قصة حياته الشخصية إلى قصة مجتمع من خلال رصده للتغييرات في مصر منذ أربعينيات القرن الماضي، لتتحول سيرته الذاتية إلى مرآة عاكسة لحياة مجتمع بأجياله

١ - جلال أمين: مكتوب على الجبين (حكايات على هامش السيرة)، ط٢، الكرمة للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٥، ص ص ١١ + ١٢.

المتعاقبة. يهدي هذه السيرة في البداية إلى زوجته وأولاده وأحفاده، ثم يوضح في التمهيد والمقدمة دوافعه لكتابة سيرته الذاتية، وكذلك يبين منهجه في إيراد الأحداث وربط الوقائع، وتحليل الشخصيات، كل ذلك بعبارة أدبية قوية، سلسة، شديدة الوضوح والدقة.

ويمكن بسهولة ويسر تقسيم مراحل حياة الكاتب من خلال فصول السيرة الذاتية، إذ يتتبع في الفصول الأولى نشأته بما فيها من ذِكر الولادة، وأصل عائلة الأب والأم، وذكر أخوته السبعة ، محللاً شخصية كل واحد منهم، وذلك في فصول (ولادة متعثرة – أبي وأمي – مذكرات أبي عن أمي – البنت – الأخوة السبعة)، ثم ينتقل الكاتب بعد ذلك إلى فترة الصبا والشباب، والجامعة أيضًا، ليقدم عرضًا مفصلاً لهذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر – والمهمة كذلك في تكوين شخصيته، ويبين أيضًا أبرز الشخصيات التي أثّرت فيه خلال هذه الفترة من حياته، وتكلم عن تكوين ثقافته آنذاك، وعوامل بنائها، وكان ذلك في فصول (أصدقاء الصبا – مباهج الصبا – الجامعة).

ثم ينتقل الكاتب إلى مرحلة الدرس والتعلم مُلحقًا بها رؤيته السياسية، مؤكدًا أن فترة شبابه قد شهدت زخمًا علميًا وسياسيًا في الوقت ذاته، خاصة مع مواكبتها لثورة يوليو ١٩٥٢، وأيضًا لسفره فيها للبعثة العلمية إلى إنجلترا، للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه، أتى هذا التفصيل في فصول أربعة تحت عناوين (الجامعة – البعث – البعثة – ثورة يوليو)، ويتبع الكاتب كل هذا بفصول أربعة تضمنت مرحلة تالية في حياته، هي مرحلة العمل، حيث عمل أولاً كأستاذ للاقتصاد في جامعة عين شمس، ثم التحق بصندوق التنمية الكويتي، وعمل لفترة قصيرة بعد ذلك في جامعة كاليفورنيا بأمريكا، وأخيرًا استقر كأستاذ لعلم الاقتصاد في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وحتى لحظات كتابته للسيرة الذاتية، وجاء تفصيل هذه المرحلة من حياته في فصول (عين شمس – الكويت – لوس انجلوس – الجامعة الأمريكية).

أما الفصول الأربعة الأخيرة فقد ضمنها الكاتب خلاصة حياته، وعصارة تأملاته، ورصده لما حدث في مصر والمجتمعات التي زارها من تغيرات اجتماعية وثقافية، وسياسية، وتعد هذه الفصول الأربعة سردًا تحليليًا في المقام الأول، وبالرغم ذلك فإن الملامح القصصية؛ والحكايات الشخصية ظاهرة بشكل ملحوظ في هذه الفصول أيضًا، ولكن عملية البوح، والرجوع إلى الأفكار والمواقف ذات الدلالات، وتسلسل الرؤى هي

الملامح الأبرز، هذه الفصول هي (ماذا حدث للمصريين – التراثيون الجدد – المرض والشيخوخة – البدايات والنهايات).

وتتجلى أهمية السيرة الذاتية لجلال أمين من خلال عدة أمور، فقد استطاع الكاتب بحرفية أن يتتبع تعاقب الأجيال في مصر، بادئًا بجيل الأجداد ويمثله أحمد أمين وزوجته وعائلتهما بوصفهما يرمزان للأصول، ثم جيل الأبناء (الجيل الأوسط) وتمثل في الكاتب نفسه مع أخوته السبعة، ثم أخيرًا جيل الأحفاد (الجيل الأخير) مُمثلاً في أولاد جلال وأولاد أخوته جميعًا، وأظهر الكاتب مقدرة فائقة في رصد قيم كل جيل، ومدى التغير الواسع الذي أظهر تفاوتًا في القيم بين هذه الأجيال، وبيّن كيف اختفت قيم وسادت أخرى على المستوى الاجتماعي والثقافي والسياسي في مصر، من خلال تتبع حياة هذه الأجيال.

كما تتجلى أهمية السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) أيضًا في تناولها لمجتمعات عديدة، إذ تعددت البلاد والمجتمعات التي زارها الكاتب واحتك بثقافتها، بدءًا من مصر، ثم إنجلترا ومن بعدها الكويت، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى بلدان كثيرة جدًا سافر إليها في زيارات قصيرة خلال عمره الطويل، هذا التنوع الفكري والثقافي الذي تعرض له جلال أمين كان له بالغ الأثر في انضاج رؤيته، وانفتاح أفكاره، وساعده كذلك في رصد المتغيرات الاجتماعية المختلفة في هذه البلدان والمجتمعات، وعرضها بطريقة سلسة مقنعة، ليؤكد مبدأ تغير العالم في فترة وجيزة من الزمن، وأن المجتمعات تتأثر ببعضها البعض، في ظل عولمة يفرض بها القوي سيطرته على الضعيف.

ومما زاد في أهمية هذه السيرة الذاتية، ما امتاز به مؤلفها من سعة اطلاع، وتعدد في الثقافات، وتنوع في التعليم، فقد تخرج في كلية الحقوق ثم تخصص في الاقتصاد، ودرس في جامعة عريقة في لندن، على يدّ أساتذة وعلماء مرموقين، ثم سافر إلى أمريكا واحتك بجامعاتها كذلك، ثم بعد ذلك بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، فانعكست كل هذه الثقافة؛ وكل هذا التعليم والتعلم بشكل إيجابي على سيرته الذاتية، إذ نرى نضجًا للأفكار، وتراتبية قوية لتأملاته في شتى مناحي الحياة، كما لا يعوزه المنطق أو الاستشهاد على صحة أفكاره ورؤاه، ويعود السبب في ذلك إلى تعدد مصادر تعلمه، وغنى مكونات ثقافته وتعددها، وانفتاحه على الآخر في الوقت ذاته.

لكل هذا تعد السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) من أغنى المؤلفات في مجالها، وأكثرها إفادة في تصوير الحياة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وتُعرّف القارئ كذلك على قامة فكرية وأكاديمية معاصرة، وشخصية لها مواقفها وأفكارها الواضحة، أضف إلى ذلك تعبير الكاتب عن كثير من أفكاره ومبادئه بلا مواربة أو تورية، أو خجل، وكان قادرًا على تقييم نفسه، وإبراز مواطن الصحة والخطأ في أفكاره ومواقفه، وعلى سبيل المثال: حين كتب رأيه في النظام الناصري ومن بعده رأيه في السادات وفترة حكمه، وكذلك رؤيته لحكم مبارك (والتي صدرت السيرة الذاتية في عهده)، وبيّن كذلك موقفه من العلمانية، والاشتراكية والمنطقية الوضعية، وكذلك الاتجاه الإسلامي، تاركًا الباب مفتوحًا أمام القارئ ليحدد خياراته هو الآخر.

وكان عمل المؤلف في سيرته منحصرًا – بذكاء – في تقديم تجربته ورؤاه، مازجًا ذلك بالواقع المعاش، فظهر أمام القارئ كفارس حرّ يكره تملق السلطة أو التزلف لها، ورآه كذلك مفكرًا موسوعيًا له منظوره الخاص ورؤيته الحكيمة، كما رآه كاتبًا محبًا لأدبه وإنتاجه الفكري والأكاديمي والثقافي، ليُخرج الكتاب بكل هذا سيرة حياة غنية بالتأمل والأفكار، مع العمل.

كما يمكن أن يضاف هذا الكتاب (ماذا علمتني الحياة؟) إلى سلسلة كتابات جلال أمين القيمة (ماذا حدث)، التي يتناول من خلالها المتغيرات التي اجتاحت مصر والمصريين والثورة والثقافة، وإن كان هذا الكتاب يعد التطبيق العملي للمتغيرات التي رصدها المؤلف؛ ولكن على الصعيد الشخصي والعائلي، بداية من جيل الأجداد حتى جيل الأحفاد.

الأنساق الثقافية في كتاب (ماذا علمتني الحياة؟)

أولاً: نسق الرصد والتأمل والخطاب الاجتماعي

يمثل البعد الاجتماعي أحد أهم العناصر المشكلة لأي نص أدبي، ويعد الخطاب الاجتماعي في سيرة جلال أمين من أهم الظواهر التي تجلت بشكل كبير في خطابه، إذ يقودنا الحديث عن أي نظام اجتماعي ورصد المتغيرات به إلى تحليل المجتمع، بما يمثله من "نظام متواصل ومتوارث، يتكون من تلك الأنماط الثقافية التي اصطلح عليها المجتمع،

ويشترك فيها جميع الأفراد وتنتقل من جيل إلى آخر، ويتعلمونها بالمحاكاة أو التكرار أو الممارسة بشكل لا شعوري"[١]، ومن المهم تتبع النسق الذي شكل هذا الخطاب الاجتماعي في كتاب "ماذا علمتني الحياة؟"، بما فيه من تفاعلات وكل ما له علاقة بالمجتمع، وأنظمته التي تعمل على استقراره وبنائه، واستمراريته، وتتبعنا لهذا النسق وثيق الصلة بالإنسان وسلوكه الإنساني الخاضع "للمعايير الاجتماعية التي تضفي عليه معنى، ليكون منسجمًا بنظر الفرد ذاته، وكذلك بنظر الآخرين"[٢].

وتشترك أفعال الأفراد وسلوكياتهم داخل الجماعة الواحدة في نفس المعايير والضوابط، وتسلك كل مجموعة سلوكًا متشابهًا في مواقف متماثلة؛ إذا استندت إلى نفس المعايير والضوابط، وذلك لأن الوعي الفردي جزء لا يتجزأ من الوعي الاجتماعي السائد الذي يوجه الجماعة، هذا الوعي الجمعي كذلك ينضوي بدوره "تحت بنية معرفية معيارية زودته بها الثقافة، ومنظومة القيم والقواعد السلوكية الجماعية"[٣].

من أجل ذلك؛ كان اهتمام النقد الثقافي بالنسق الكامن وراء التناول الاجتماعي، بوصفه قراءة للنصوص في سياقها الاجتماعي، بما فيها من ممارسات وأفعال، وقيم ومعتقدات خاصة بهذه الجماعة أو تلك، فتهتم القراءة الثقافية برصد سلوك الفرد بشكل خاص، أو سلوك الجماعة بشكل عام، ومن ثم يقوم التحليل الثقافي بالربط بين بنية النص فنيًا ودلاليًا، والنسق المضمر الدال على القيم الاجتماعية السائدة، ويشكل النص حينئذٍ "بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعية)؛ ضمن بنية نصية منتجة في إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة"[٤].

وقد تأثر الخطاب الاجتماعي في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) بنسقين مميزين؛ يقوم أولهما على الرصد المكثف للمتغيرات الاجتماعية، بينما يقوم الآخر على

١ - كريم زكي: اللغة والثقافة دراسة أنثرو لغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠، ص٦٥.

٢ - عبدالغني عماد: سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠١٧، ص١١٢.

٣ - المرجع السابق: ص١١٢.

٤ - سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي – النص والسياق، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ٢٠٠١، ص٣٢.

الحنين للقيم الاجتماعية التي تمثل عصرًا ولى، أو بهت وجودها واندثرت، ذلك أن الكاتب دوّن مشاهداته خلال أكثر من ستين عامًا أو يزيد، ولا شك في أن هذه الفترة قد شهدت تغيرًا واضحًا في القيم الاجتماعية في البيئة المصرية؛ بل وفي مجتمعات عديدة زارها الكاتب.

إن نسق الرصد والتأمل – بجانب نسق الحنين للماضي بقيمه وجمله الثقافية – في هذه السيرة هو النسق الأوضح والأكثر إحاطة بها وتأثيرًا فيها، فأينما اتجهت ببصرك ستجد تأثرًا ورصدًا لهذه المتغيرات الاجتماعية، وملاحظات الكاتب الدقيقة حول هذه القيم، وما شاهده من عادات وسلوكيات، سواء أكانت قيمًا سائدة أو مضمحلة.

ولا يمكن بحال قراءة هذه السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) قراءة ثقافية، دون أن يكون ذلك في ضوء سياقها الاجتماعي "حيث تتضمن النصوص في بناها العميقة أنساقًا مضمرة، ومخاتلة قادرة على التمنع، ولا يمكن كشف دلالاتها النامية في المنجز الأدبي إلا بإنجاز تصور كلي حول طبيعة البنى الثقافية للمجتمع"[١].

وسيعرض البحث تجليات نسق الرصد والتأمل في صياغة الخطاب الاجتماعي في سيرة (ماذا علمتني الحياة؟) من خلال تقديم الموضوعات والقضايا التي كان لنسق الرصد والتأمل أثر مباشر؛ وقوي في طرحها، برصد ما فيها من تغيير بين القديم والحديث؛ أو بين المجتمعات المختلفة، مع ملاحظة أن هذا النسق هو الأكثر تأثيرًا في تشكيل الخطاب السير ذاتي عند الكاتب.

لذلك قد يكون من الأجدى تتبع أثر هذا النسق في نقاط نظرًا لتغلغله في ثنايا السيرة الذاتية بشكل ملفت للنظر:

١. رصد أوضاع العائلة المصرية بين القديم والحديث

تجلى نسق الرصد ودقة التحليل من أول صفحات السيرة الذاتية؛ حيث قدّم جلال أمين في هذه القضية الكثير من المظاهر الاجتماعية؛ التي يمكن أن تقوم بواسطتها مقارنات عدة بين تغير أنماط أو ظهورها واختفائها، حيث أفرد لقيم العائلة وما يتعلق بها الكثير من الصفحات، مثل: تعرضه لحادثة ميلاده وما صاحبها، ونشأته وطفولته، أو

١ - يوسف عليمات: النقد النسقي – تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، ط١، الأهلية للنشر، الأردن ٢٠١٥، ص٢١.

تعرضه لفترة صباه وكذلك تحليله لشخصيات أخوته، فقد ساق في أول صفحة عادة المصريين في ذلك الوقت من كثرة إنجاب الأولاد "**لم يطق أبي صبرًا وقرر أنه آن الأوان لأن يضع حدًا للأمر وأن يجبر والدتي على الإجهاض، ولا أدري بالضبط سر تمسك أمي بهذا الطفل الثامن، فقد كانت لديها وفرة من الأولاد والبنات، من المؤكد أن المصريين كانوا – ولا يزال أكثرهم – يعتبرون كثرة الأولاد مفخرة للأم، ولكن الأرجح أن الأمر كان يتعلق بوجه خاص بعمتي**"[١]، ويعلق الكاتب على هذا المعتقد الاجتماعي بأن والدته كانت ترغب في إغاظة عمته؛ والتي بدورها تحسد أمه على ما حباها الله به من وفرة الأولاد.

ثم يتطرق إلى رغبة والده في إجهاض الحمل، وأن هذا الأمر لم يكن شائعًا وقتذاك، وحكى عن ذهاب أبيه إلى طبيب إيطالي في إشارة إلى نسيج مصر الاجتماعي حينها، حيث نرى جنسيات أخرى ذوي مكانة متميزة في المجتمع، وينتهي الأمر برفض الأم لعملية الإجهاض "**ثم تحرك في قلبها غضب غريزي جعلها تدفع الطبيب بكل قوتها صائحة في ثورة: روح يا شيخ هو أنا حبلى في الحرام! فتراجع الطبيب خائفًا وقال معلنًا استسلامه؛ وبلكنة أجنبية ظلت دائمًا مبعثًا للضحك في أسرتنا على مرّ الأيام؛ كلما أعادت أمي رواية القصة: ياخبيبي أنا مالي؟ عايز تسقط تسقط، عايز تخبل تخبل**"[٢]، يبرز أثر الدلالة النسقية لعملية الرصد في تشكيل هذ السيرة؛ من خلال تناول الكاتب لهذه القيمة الاجتماعية، إذ يؤكد أن الإجهاض لم يكن بالفعل السهل وقتها، وبخاصة في بيئة تحب كثرة الأولاد، وتعتقد في حرمة الإجهاض وأنه من الكبائر، كما يشير إلى وجود أطباء غير مصريين – وغير مسلمين كذلك – يقومون بهذا الفعل المشين، والنقطة الأهم هو موقف الأب الذي لم ير غضاضة في فعل هذا العمل، بل سعى فيه وهو الكاتب الكبير الذي له إسهاماته المميزة حول الإسلام وقضاياه.

ونرى الأثر المباشر لهذا النسق على الكاتب؛ فيما يخص خطابه الاجتماعي، حين يعرض طبيعة العلاقة بين أمه وأبيه، حيث يصفها كثيرًا بالمتوترة، وصلت حدّ التفكير

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢١.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٢.

بالانفصال أحيانًا، وقد خصص عنوانًا كاملاً لعرض مذكرات والده عن والدته، وتعد هذه جرأة منه وأمانة، وصراحة مع موضوعية في العرض، إذ يبدو أن الأب لم يكن راضيًا تمامًا عن حياته، وكان يود في قرارة نفسه لو كانت زوجته أكثر جمالاً "**وجدت أبي رجلاً قليل الكلام لا يعرف المزاح أو المرح، وهو يطلب منها الزواج دون أن يراها، فليس هناك إذن حب ولا حتى تفضيل لها عن غيرها ... ثم تصطدم الفتاة في أول أيام الزواج بعد انتقالها إلى بيت الزوجية بانشغاله المستمر بكتبه وأوراقه ... وترتعد أمي خوفًا ويغضب الزوج غضبًا هائلاً وتدور فكرة الطلاق في ذهنه ... لا بد أن الأمور تحسنت مع مرور الزمن**"[١].

والحق أن جلال أمين قد استفاض في شرح هذه العادات والسلوكيات الاجتماعية، وقدّم وجهة نظره فيما يتعلق بسبب النزاع بين الأب والأم، إذ أبرز بعض القيم والممارسات الاجتماعية بتوجيه دائم من نسق رصد والتأمل في سيرته الذاتية؛ وبثه المتواصل لها، من خلال الأطروحات المتعددة والمستمرة لهذه القيمة الاجتماعية أو تلك، فقد أشار جلال أمين أكثر من مرة في فصل (مذكرات أبي عن أمي) إلى تلك المشاكل المتكررة التي حدثت بينهما، وأرجع ذلك إلى شعور الأم الدائم بعد الأمان، وكذلك لغيرة أخوات الأب (أحمد أمين) البنات من أمه، وتأليبهن المستمر لأخيهن عليها، وكذلك رفض أمه السكنى في بيت واحد مع والدي أحمد أمين، ومطالبتها بمسكن خاص ومنفصل، وكذلك إشارته الاجتماعية إلى طبيعة العلاقة بين زوجات الأولاد في البيت الواحد، وكان يعني بذلك زوجة عمه[٢].

لقد تعرض الكاتب باستفاضة لكل هذه القيم والعادات الاجتماعية بأثر من نسق معين يسيطر على مشاهداته الاجتماعية، نسقٌ قائم على الدقة والحساسية الفائقة تجاه ما يحدث أمامه أو يراه أو يسمع به، ويبدو أن هذه القيم الاجتماعية التي عايشها الكاتب وهو صغير كان لها بالغ الأثر في تشكيل وعيه، إذ قامت في مجملها على نسقٍ واحدٍ متأصل بداخله، مما حدا به أن يقارن بين القديم والحديث؛ ويقرر كذلك أن هذه القيم والسلوكيات لا تزال قائمة في بعض المناطق الريفية من المجتمع المصرين سواء ما يتعلق بكثرة

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ٢٩ + ٣٠.
٢ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ فصل (مذكرات أبي عن أمي)، ص٣٣ وما بعدها..

الأولاد، أو ما يتعلق بوجود مشاكل بن الزوجين، أو بين أم الزوج وزوجته، أو مع أخواته البنات، كما كان الحال منذ مائة عام.

وتوجد عدة قضايا وقيم أخرى كثيرة تناولها جلال أمين، كان مبعثها نسق الرصد والحنين للماضي الذي ملك عليه نفسه، ويمكن تصنيفها ضمن ما يخص قيم العائلة، وما كان يحكمها من معايير وضوابط في تلك الفترة من عمر المجتمع المصري، ونجد تلاقيًا عريضًا بين طرحه وطرح نجيب محفوظ في ثلاثيته، حين يؤكدان على قدسية الأب وكل ما يخصه، ومن ذلك مثلاً الحجرة المخصصة للوالد، وتفضيل الأم له في كل يتعلق بشؤون الملبس أو المأكل أو الراحة، لأنه سيد البيت، وربّ الأسرة "**إذا فحجرات البيت المستخدمة كلها هي حجرات النوم، وكلها حجرات تستخدم على المشاع وتفتقد إلى الخصوصية، باستثناء حجرة واحدة كانت تتمتع بهيبة ملحوظة وتلقى عناية خاصة عند تنظيفها، ولا يدخلها أحد إلا لسبب وجيه، كانت هذه هي حجرة نوم أبي، اكتسبت في نظرنا الهيبة بل والرهبة التي كانت تحيط بأي شيء يتعلق بأبي**"[1]، كانت هذه القيمة الاجتماعية سائدة حتى وقت قريب في المجتمع المصري، ورأتها أجيال حديثة العهد، ولم يكن التغيير في هذه القيمة سريع الحدوث.

ولا يفوت جلال أمين أن يتعرض لأسرة أبيه وكذلك عائلة أمه، وكان تناوله لهما من منظور طبقي، ليوضح أن أصول الأم والأب يشتركان في الانتماء إلى الطبقة المتوسطة، ولا يفتأ مرة بعد أخرى أن يؤكد على أن أسرته ذاتها تنتمي إلى الطبقة المتوسطة أيضًا، لذلك أفرد صفحات في الفصل الأول ليعرض بتفصيل أصول هاتين العائلتين "**كان أبي من أسرة قاهرية، جاء أبوه وهو صغير إلى القاهرة من قرية بمديرية البحيرة، حيث كان يُجلد الفلاحون بالسياط إذا لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب، وتعلم جدي في القاهرة حتى صار من علماء الأزهر، كانت أسرة متواضعة الدخل تعيش عيشة غاية في البساطة، ولكن أبي لم يذق شظف العيش في طفولته أو صباه، فلا هو قضى الليل جائعًا ولا تعرض لمقارنة مريرة**"[2]، وقال مثل هذا الكلام ثانية في الصفحات التي تلي هذه الفقرات

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٤٣.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ٢٣ + ٢٤.

عن أسرة أمه، وكان جلال أمين كثير التركيز في خطابه الاجتماعي القائم على نسق الرصد على الأسر المتوسطة، التي ينتمي هو إليها كما صنف نفسه وعائلته، ويمكن أن نلمح هذا التركيز ممتدًا حتى نهاية سيرته، حتى في كتابته الاقتصادية يولي اهتمامه بهذه الطبقة وما تحتها من طبقات تعاني الأمرين.

وثمة قيمة اجتماعية أخرى تعرض لها الكاتب بين القديم والحديث، تتعلق بطبيعة العلاقات الحميمة بن أفراد العائلة الكبيرة، ويتجلى في تناوله لهذه القيمة أثر عملية الرصد، مع عدم الحنين للماضي، حيث كان يعاني من عدم وجود مثل هذا الجو الدافئ المشبع بالسكينة "**فإذا لم نجده مشغولاً بكتاب أو جريدة جلست أمي على الأرض وجلسنا جوارها كالقطط الصغيرة، كانت هذه الجلسة هي أقرب ما كان يمكن أن يحدث للجلسة العائلية الحميمة، وهي على أي حال لم تكن تدوم كثيرًا، إذ سرعان ما تبدر من أبي كلمة أو حركة يفهم منها أن الزيارة قد انتهت، فننسحب وراء أمي كما دخلنا**"[١]، دفعه هذا الجفاف العائلي – الذي عبّر عنه أكثر من مرة – إلى الحرص على أن يجمع شمل العائلة وهو كبير، فقد صرح في صفحتي (٣٤١ – ٣٤٢) أنه كان مواظبًا على دعوة كل أفراد عائلته يومًا في كل عام، هو يوم (الكريسماس).

وقد حافظ على ذلك التقليد سنين طويلة، حتى لاحظ تناقص الأعداد عامًا بعد آخر، فقد أخذ عدد الحاضرين يقل مرة بعد مرة إما بالوفاة، أو بداعي المرض، أو الانشغال الحياتي في العمل، أو بالهجرة، لكن الأمر المهم أن هذا التقليد قد انتهى، كما انتهى في كثير من الأسر المصرية كما يرصد الكاتب، إذ لم تعد العائلات المصرية تجتمع إلا في المناسبات، وسادت أجواء موحشة تفتقد الدفء والطمأنينة، لذلك جاء تحليله السابق تحت عنوان كبير هو (خيبات أمل)، لما سببه له هذا المتغير الاجتماعي من خيبة أمل ممتدة، منذ أن كان طفلاً، إذ لم يحظ بكثير من هذا الأجواء المعبقة بالألفة والسكينة في نشأته الأولى.

٢. رصد العادات والتقاليد في المجتمع المصري

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٤٤.

ويتضح تأثير نسق الرصد والتأمل، ودوره الفعال في تشكيل الخطاب الاجتماعي السير ذاتي عند جلال أمين، في تطرقه المستمر إلى ذكر عادات وتقاليد مصرية شاهدها في طفولته؛ وسادت قبل ذلك، مقيمًا مقارنة بين ما كان سائدًا وما حدث من تغير في هذه العادات وقيم، فمن هذه القيم التي شكلت جزءًا مهمًا في الخطاب الاجتماعي الوارد في السيرة الذاتية (الزواج والطلاق)، إذ تعرض الكاتب لطريقة زواج أبيه وأمه بوصفهما ممثلين عن جيل، ثم لزواج أخواته وزواجه هو نفسه كجيل تالٍ للجيل السابق، ثم زواج الأحفاد وما صاحب هذا من تغير في القيمة الاجتماعية، وتبدل في العادات والسلوكيات الخاصة بها، وأشار على سبيل المثال إلى زواج الوالد (أحمد أمين) من أمه دون أن ينظر إليها أو يعرفها قبلاً، وكذلك كان حالها، ولم يستسغ المجتمع آنذاك أن يتم تصوير العروسين معًا، فاستعاض الوالد عن ذلك بتصويره مع الكتب.[١]

ولم يفت جلال أمين أن يشير إلى تعنت المجتمع المصري في الموافقة على الزواج من شاب فقير، أو من طبقة أقل من الطبقة التي تنتمي إليها العروس، حدث هذا حين تقدم قريب لأم الكاتب (ابن خالها) لخطبتها، ورفض خالها الآخر – ولي أمرها حينذاك – لأن الشاب فقير لا يملك شيئًا، مما تسبب في تحطم قلب الفتى والفتاة، حكى الكاتب: "**وتعاهد الاثنان على الزواج، فذهب أبو الفتى العاشق إلى أخيه ولي أمر الفتاة العاشقة يطلبها لابنه، فرفض الطلب بقسوة، إذ كان لولي الأمر بنات في سن الزواج؛ ولم يكن يرغب في أن تتزوج البنت اليتيمة قبلهن، وأخذ يختلق الأعذار للرفض ... هربت الفتاة من بيت خالها على إثر هذه الواقعة**"[٢]، وتمثل حادثة هروب أم الكاتب من بيت خالها؛ حادثة غريبة على المجتمع المصري وقتها، إذ لم يكن مألوفًا أن تهرب فتاة يتيمة من بيت ولي أمرها، وهذا يدل على قوة شخصية الأم، واستعدادها للخروج على مألوف العادات بدون أن ترتكب خطيئة أو تفعل ما يشين.

ولكن الأم وقعت في المحظور حين كانت بصدد اختيارها زوجة لابنها البكر (محمد)، فقد حاولت أن تزوجه من فتاة اختارتها هي "**وقد حاولت أمي إقناعه بالتقدم**

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٨ وما بعدها.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٨.

لخطبة ابنة صديقتها (هدية) الارستقراطية المتعلمة والثرية، فرفض محمد لعذر تافه اختلقه اختلاقًا، ثم إذ به يختار امرأة من أسرة اعتبرتها أمي أسرة عادية، متوسطة الجمال، لا يعرف عنها ثراء أو جاه، كما سبق لها الزواج والطلاق ... أعلنت الحرب على الزوجة، فرفضت زيارة عائلتها، ولم تستقبلها في بيتها إلا مضطرة ثم انسحبت انسحابًا تامًا من حياة ابنها بعد زواجه"[١]، لقد شهدت هذه القيمة الاجتماعية تبدلاً عميقًا بين جيل الوالدين وجيل الأولاد، فقد اختار الابن زوجته وأنفذ رغبته، وتزوج بمن أرادها، بينما كان الحال مختلفًا في الجيل السابق، ولم يكن الأمر يسير حسب الرغبة، بل وفق عادات صارمة، وتقاليد محددة لا مناص عنها أبدًا.

أكد جلال أمين – بتوجيه مباشر من نسق الرصد والتحليل – على عمق هذا التغير في أمر الزواج، وكرره في أكثر من موضع، مثل تكراره حين تناول شخصية أخته فاطمة بالتحليل، مبينًا أن الجيل السابق كانت لهم تقاليدهم، وأن "**أمور الحب أو عدمه لم تكن مما يؤخذ مأخذ الجد**"، حاكيًا أن فاطمة أخته قد سلكت مسلكًا شبيهًا بأخيها محمد، حيث رفضت عريسًا تقدم لخطبتها ووافق والدها عليه، وبعد أن رفضته، تقدم – نفس العريس – لأختها نعيمة، وتم زواجها منه بالفعل[٢].

ولقد حاول جلال أمين بأثر من ذلك النسق أن يظهر حجم التغيير الحادث في أمر الزواج، واختلاف قيمه بين الأجيال، فحين يأتي ذكر جيل الأحفاد يقرر أن الاختيار الأول والأخير منوط بطرفي الزواج لا بأحد غيرهما، وأن تدخل أحد من الآباء في عملية الاختيار أو الزواج لا محل له من الإعراب، ويرفق بهذا التقرير رصده لما حدث من تبدل في هذا السلوك الاجتماعي خلال خمسين عامًا، حين كانت العملية تتم من خلال ولي الأمر دون تدخل الفتاة، مرورًا بمرحلة القبول أو الرفض من الشاب أو الفتاة، انتهاءً بأن يكون كامل الاختيار حقٌ أصيل للطرفين اللذين سيقيمان البيت، ويبنيان الأسرة.

أما قضية الطلاق فقد احتلت مساحة عريضة من الخطاب المتأثر بنسق الرصد والتأمل؛ المُشكل للسيرة الذاتية، حيث أسهب جلال في بيان انتشار هذا السلوك الاجتماعي بين الأجيال الجديدة في المجتمع المصري، بعد أن كان يكرر مررًا أن لفظة (الطلاق) لا

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٥٣.
٢ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص٥٧.

تتردد بحال داخل بيتهم، ويمكن أن نرى تراتبية قوية في عرضه لهذه القيمة الاجتماعية وما اعتراها من تغيرات، حيث قال بأن هذا السلوك لم يكن يُسمع به في جيل الآباء إلا نادرًا، وكان يثير بشاعة واستغرابًا في النفوس، بينما أصبح أمرًا مقبولاً إلى حدٍّ ما في جيله هو وأخوته، ثم صار أمرًا شائعًا يصل حدّ الإلف في جيل الأحفاد، وقد استفاض في تناول هذه القضية في صفحات كثيرة مثل صفحتي (٣٤٢ –٣٤٣) ثم في صفحة (٣٥٢) وما بعدها كذلك.

شغلت قضية الطلاق عقل جلال أمين، حين لاحظ زيادة "**حالات الطلاق زيادة كبيرة في الجيل التالي، فبينما انتهت زيجتان بالطلاق في حالتنا نحن الأخوة الثمانية، أي بنسبة الربع، ارتفعت هذه النسبة إلى نحو النصف في الجيل التالي أي بين أولاد وبنات الأخوة الثمانية، فمن بين عشرين ولدًا وبنتًا تزوج منهم ثمانية عشر، انتهت ثماني زيجات بالطلاق، وكلهم لا زالوا في مقتبل العمر ومن ثم فلا زال أمامهم فرص واسعة إذا شاءوا للطلاق والزواج من جديد لا أجد من الصعب تفسير هذا التغير، لقد كان الطلاق في حالة أبي وأمي أقرب إلى المستحيل**"[1]، لا يعنينا هنا تقديم التفسير الذي ارتضاه الكاتب لزيادة حالات الطلاق من جيل إلى آخر، بقدر ما يعنينا أنه عدّ هذا السلوك الاجتماعي مؤشرًا خطيرًا على تغير الأنماط الاجتماعية لدى المصريين، وقامت إشارته هذه بأثر مباشر من نسق الرصد، ودقة الملاحظة التي امتازت بها شخصيته.

لقد ظهر أثر نسق الرصد من خلال تناول جلال أمين لقضيتي الزواج والطلاق وغيرهما، ليتشكل الخطاب الاجتماعي العام الذي مثل المنطلق الرئيس عند كتابة المؤلف لسيرته الذاتية، كما حدث مثلاً في تناوله لقضية الطلاق – السابق ذكرها – إذ وردت لفظة الطلاق في عموم السيرة الذاتية أكثر من عشر مرات، متبوعة بعملية رصد وتحليل لما صاحب هذا السلوك الاجتماعي من تغير على مدى عقود، وهذا الرصد ليس غريبًا على الكاتب الذي كان أشبه بالصقر لدقة رصده، وملاحظاته الدقيقة المنضبطة لكل ما يحيط به، ويستطيع تسجيل أدنى تغير يحسه.

٣. رصد أنماط المعيشة وشكل البيوت

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٣٥٣.

كان تأثر الكاتب بنسق الرصد قويًا ومتحكمًا، الأمر الذي جعله يتطرق – في وصفه للحالة الاجتماعية في مصر، إبان فترة الأربعينيات من القرن الماضي وما بعدها – إلى دقائق وتفصيلات غاية في الأهمية، إذ قام بوصف تامٍ لشكل البيوت التي كان يقطنها أغلب سكان مصر ممن ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، وقد أفرد الكاتب فصلاً كاملاً بعنوان (البيت)، ليقف فيه أمام شكل البيوت آنذاك، ويؤكد أن ملامح تلك البيوت تتكرر بحذافيرها في معظم بيوت الأقارب والصدقاء والمعارف، مُتبعًا وصفه هذا ببيان حال بيوت الطبقة المتوسطة في الوقت الحالي، ويستمر في سرد هذا الوصف وبيان أنماط معيشة هذه الطبقة المتوسطة زهاء ثمانية صفحات.[١]

ويتجلى أثر هذا النسق بوضوح في هذه النقطة المهمة، حيث استطاع رصد التغيرات التي اعترت أنماط المعيشة، بمقارنة حال الطبقة المتوسطة الآن بمثيلاتها قديمًا، فيقدم سردًا بديعًا يبين من خلاله بدقة وقت دخول الكهرباء والأجهزة الكهربائية إلى المنازل، وما صاحب ذلك من سيادة نمط الاستهلاك في المجتمع المصري، ولكي يجذب القارئ ويشوقه؛ قام بعملية ربطٍ واضحة بين هذا المتغيرات الاجتماعية وحياتهم الشخصية، فنراه في فصل (البيت) يقدم وصفًا ضافيًا لعملية دخول الراديو والمكنسة والغسالة إلى بيتهم، مدونًا ردود الفعل تجاه كل هذا من الأب والأم بوصفهما ممثلين للجيل القديم، ويستغل الفرصة ليتكلم كذلك عن نظرته للرفاهية والكماليات في حياة الأسرة المتوسطة كذلك.

٤. رصد الطبقات وحال مصر في الحرب العالمية الثانية

بدا أثر نسق الرصد والتأمل واضحًا في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)؛ حين لم يغفل جلال أمين عن تدوين مشاهداته حول المجتمع المصري إبان الحرب العالمية الثانية، وما جرته تلك الحرب من متغيرات في البعد الاجتماعي الذي ينتظم الحياة في مصر، فهو يذكر "**صفارات الإنذار وصفارات الأمان، وأنها كانت صفارات حقيقية وجدية، تبعث الأولى الخوف وتبعث الثانية الطمأنينة ... أذكر أيضًا جرينا إلى المخبأ في بدروم المنزل، وصيحات الناس في الشوارع بضرورة إطفاء الأنوار**"[٢]، وأتبع المؤلف حديثه عن

١ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ من ص٤١ حتى ص٤٧.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٩٠.

الحرب العالمية الثانية بذكر حال الطبقات في مصر بعد هذا الحرب، وإن كان الظاهر والأكثر ورودًا هو تبنيه لحالة الطبقة المتوسطة، بوصفه منتميًا لها.

فنراه قد أخذ في شرح مستفيض لما حدث لهذا الطبقة المتوسطة في الحرب وما بعدها، مبينًا تراجع قوتها الشرائية، وكذلك تراجع قدرتها على الاستمتاع بشكل يتناسب مع دخلها، وأنها كانت – أي تلك الطبقة – قادرة على الذهاب إلى المصيف كل عام، وشراء كل الأجهزة الكهربائية، بل والأجهزة التي كانت تعد من الكماليات آنذاك، عاقدًا مقارنة بين حالها في ذلك الوقت وواقعها في الوقت الراهن، وبيّن كذلك ما حدث لها من تآكل جعلها تقترب من القاع أكثر فأكثر، مؤكدًا أن هذا التآكل في الطبقة الوسطى يشكل خطرًا داهمًا على النسيج الاجتماعي في مصر.[١]

٥. رصد المجتمعات الأخرى

استفاض الكاتب بأثر من نسق الرصد والتأمل المُشكل لسيرته الذاتية؛ في بيان حال كثير من المجتمعات التي زارها، وعاش فيها فترة من عمره المديد، حيث أتاح له ذلك الاختلاط بتلك المجتمعات رؤية أوسع لفهم القيم والسلوكيات الاجتماعية، مما سهل له عقد مقارنات عديدة بين ما يراه في مصر، وما يشاهده في تلك المجتمعات الأخرى، وتراوحت رؤيته لتلك القيم السائدة في تلك المجتمعات بين الرفض والقبول.

فنراه مثلاً يرفض المجتمع الناشئ في الكويت، ويراه مجتمعًا مصنوعًا متكلفًا "**لقد تبلد الإحساس ووصل مفعول المخدر إلى المخ، وكان لا بد من أن نبحث عن شيء ننشغل به بدلاً من كل تلك المشاكل اليومية التي كانت تشغلنا في بلد حقيقي كمصر، أو ليس الكويت بلدًا حقيقيًا؟ قال لنا مرة أستاذ مصري ظريف ممن عاشوا في الكويت مدة طويلة: إن الكويت تذكره بما كنا نفعله أحيانًا ونحن أطفال إذ يقول أحدنا للآخر : تعال نلعب مدرسة، أو تعال نلعب دكتور ومريض، هكذا الكويت**"[٢]، ولم يتراجع الكاتب أبدًا

١ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص٩٩ وما بعدها.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٤٢.

عن تصوره تجاه هذا المجتمع، وكرر هذا الإحساس طوال الفصل الذي خصصه للحديث عن فترة إعارته لهذا البلد، وعنونه بنفس الاسم (الكويت).

لقد رصد الكاتب في سيرته أنماطًا معيشية كثيرة لمجتمعات أخرى، تنوعت كالتالي: ذكره شكل الحياة الاجتماعية في لندن بوصفه بلدًا مكث فيه ست سنوات، بل وتزوج من إنجلترا كذلك وعاد إليها كثيرًا في زيارات ومؤتمرات، وذكر أيضًا أنماط المعيشة كما لاحظها في أمريكا، التي زارها أكثر من مرة، وقضى فيها عامًا متصلاً كذلك، أتاح له أن يرصد بدقة المتغيرات الاجتماعية التي اكتنفت المجتمع الأمريكي، ونراه كذلك يعمد إلى وصف الوضع الاجتماعي لكثير من البلدان التي أتاح له (صندوق التنمية الكويتي) زيارتها، مثل: تايلاند – بانجلاديش – الباكستان – ماليزيا – أندونسيا، وساعدته تلك الزيارات على إقامة مقارنة منضبطة بين تلك المجتمعات والمجتمع المصري من جهة، ومن جهة أخرى تتبع التغير الذي حدث على مستوى البلد الواحد على مدار السنين، في حال تعددت زيارته لهذا البلد مرة أخرى.[١]

أتاح هذا التطواف الكثير للكاتب – مع قدرته على الرصد والإمساك بأدق التفصيلات الحادثة على المستوى الاجتماعي، أن يصنف البلاد إلى أمم عجوز وأخرى فتية "**ولكني خرجت من الرحلة كلها بفكرة ألحت على ذهني، وهي أن هناك – فيما بدا لي– أممًا يمكن وصفها بأنها أمم عجوز، وأخرى فتية، وهذا التمييز يتعلق بالموقف النفسي للشعب أكثر مما يتعلق بتاريخها أو نظامها السياسي أو الاقتصادي أو مواردها**"[٢]، لقد أخذ بعد طرح فكرته هذه في استعراض كل الدول والبلدان التي زارها، مصنفًا إياها من منظور الفتوة والشيخوخة، حتى وصل إلى مصر وقدم رؤيته لحال مصر من هذا المنظور.

وما يهم في هذا السياق؛ بيان هذا التنوع والثراء الذي قام به نسق الرصد في بناء هذه الرؤى الاجتماعية، الأمر الذي شكل خطاب جلال أمين الاجتماعي، وانعكس في سيرته الذاتية، فقد عقد مقارنات كثيرة على مستويين: المستوى الأول في المجتمع المصري وما فيه من قيم وعادات وسلوكيات قديمًا وحديثًا، والمستوى الثاني بين حال مصر

١ ـ انظر: ماذا علمتني الحياة؟ صفحات (٢٣٩ ــ ٢٤٩ ــ ٢٥٦ـ ٣٦٦).
٢ ـ ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٥٠.

اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا، مع غيرها من الدول التي زارها أو عاش فيها، ولا شك في أن كل هذا جعل من نسق الرصد والتحليل ذا أثر كبير، وعظيم الخطر في تشكيل سيرته عند تدوينها.

إن رصد جميع القيم والسلوكيات الاجتماعية التي وردت في سيرة (ماذا علمتني الحياة؟) سيكون أمرًا عسيرًا، إذ يجد القارئ في كل صفحة مثل هذه القيم أو العادات أو السلوكيات التي رصدها الكاتب، وشكلت في مجملها خطابًا اجتماعيًا متأثرًا بنسق الرصد والتأمل الذي كانت بصمته واضحة في السيرة كلها، ويكفي أن نسوق – في آخر عرضنا لهذا النسق – بعض الأمثلة للقضايا والقيم التي تعرض لها الكاتب في سيرته الذاتية؛ بأثر من هذا النسق.

فقد رصد الكاتب موقف المجتمع المصري قديمًا من تعليم البنات، حين كان يقدم نبذة عن حياة أخوته؛ ومنهم أخته فاطمة، وكيف أن والده وافق على سفرها لبعثة خارجية لتستكمل تعليمها كما في صفحة (٥٦)، كما رصد حال الشباب فترة الأربعينيات من القرن الماضي، واصفًا بداية ثورتهم على العادات والتقاليد الاجتماعية المتوارثة، في مقابل تطلعهم للمستقبل وطموحهم الوثاب، كان ذلك في حديثه عن أخته فاطمة وصديقه علي مختار في صفحتي (٧٤ – ٧٥)، ونراه يعقد مقارنات لطيفة عن بعض الأماكن في مصر مثل (رأس البر)، مقدمًا صورة لها قديمًا وكيف كانت أيقونة للجمال والرُقي، ثم تبدل حالها بعد ذلك بسنوات، وانحدار مستواها الجمالي، واختفاء أي مسحة للرُقي منها، نجد ذلك في أكثر من موضع، منها صفحتي (٩١ –٩٣).

كما رصد جلال أمين بعض القيم الاجتماعية الخاصة بزواجه، ليتنوع بذلك نسق الرصد والتأمل، ويضم عدة اتجاهات ما بين الثقافة الشرقية العربية، والثقافة الغربية أو الغيرية، فمن ذلك كلامه عن زوجته الإنجليزية، ناقلاً نظرة الناس تجاه خطوته هذه، وما أحدثه ذلك من قيود في التعامل داخل المجتمع المصري[1]. ورصد كذلك حال المجتمع الجامعي في مصر – بوصفه جزءًا أصيلاً من المجتمع – على مستوى الإدارة والأساتذة والطلاب، ودار محور عرضه حول الرفض المطلق لما يحتويه هذا المجتمع من قيمٍ

١ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص١٦٧.

اعتبرها مسيئة، وذلك حين نوه إلى عملية الامتحانات والغش وأعمال الكنترولات، وأشار إلى تكالب بعض الأساتذة على المال نهمًا وشراهة، كل هذا يدلل على دقة رصد الكاتب، وعميق تأمله لهذا المجتمع ولغيره من المجتمعات.(١)

وللتدليل على الأثر الكبير الذي أحدثه نسق الرصد ودقة التحليل في تشكيل الخطاب الاجتماعي السير ذاتي عند الكاتب؛ ما نراه من عقد المؤلف فصلاً كاملاً بعنوان (ماذا حدث للمصريين؟)، ولا يخفى علينا أن هذه الكلمات هي عنوان كتابه الأشهر، الذي وصف فيه التغير الحادث لمصريين على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ولذلك نراه بدأ هذا الفصل بحديثه عن ذلك الكتاب، وأنه معروف به وذكره مقترن بهذا الكتاب دون غيره، ثم يقضي بقية صفحات الفصل في تقديم رؤيته الاجتماعية ذاتها، تلك التي رأيناها مبثوثة في كل صفحة من صفحات السيرة الذاتية محل الدراسة، كل ما فعله في هذا الفصل هو تقديمه لرؤيته بشكل مركز أكثر، وأبدى رأيه في التغيرات الحادثة دون خوف أو مواربة.(٢)

وما إن نصل إلى نهاية السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، حتى نرى تجليًا أكبر لنسق الرصد، بشكل أسهم في تركز رؤيته، وتبلورها في شكل مكثف ودقيق، وذلك من خلال فصله الأخير (البدايات والنهايات)، فنجده في صفحة (٣٥٤) وما بعدها يطرح نفس رؤيته للمجتمع المصري وما حدث فيه من تغير اكتسح كل القيم الاجتماعية والثقافية، ورغم تناوله لهذا القيم أثناء تقدمه في السيرة الذاتية، إلا إنه يقدمها – مشمولة بنصائح وحلول – كخلاصة لرحلة حياته، وخاتمة لعمره، وزاد عليها نظرته لبعض القضايا، مثل: هجرة الشباب الآن إلى الخارج، أو عمله لدى مؤسسات أجنبية عاملة في مصر، أو تناوله للقيمة الفعلية للشهادات الجامعية في مصر الآن، ونظرة المجتمع لها. كل هذا الطرح المركز المصفى؛ يلفت انتباهنا إلى الأثر المهم الذي أحدثه نسق الرصد والتأمل في صوغ الخطاب الاجتماعي للكاتب؛ ودوره الفعال في إقامة البنية المميزة لخطاب السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟).

ثانيًا: النسق المعرفي وبناء الخطاب الثقافي

١ ـ انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص٢١٤ وما بعدها حتى ص٢١٩.
٢ ـ انظر: ماذا علمتني الحياة؟ فصل (ماذا حدث للمصريين؟)، ص٢٩٣ وما بعدها.

ترتبط الثقافة في عمومها بالوجود والذات، والتراث الثقافي ودلالته الاجتماعية، فضلاً عن ما يتبناه من وعي ثقافي بما هو ثابت وما هو متغير، في العناصر المكونة لثقافة أي مجتمع، ويتصل الخطاب الثقافي بكل ما فيه من "استثارة للذهن، وتهذيب للذوق، وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد والمجتمع، بجميع المعارف والمعتقدات، والفن والأخلاق، وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه، ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية، ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي، وأضاف إليها في الحاضر، وتمثل عنوانًا للمجتمعات البشرية"[١]، ليتكون البناء الثقافي بهذا المفهوم من مجموع القيم الثقافية التي تقيم أوده، وتُشيد بناءه، هذه القيم التي تتصل أيضًا "بالنمط الكلي لحياة شعب ما، والعلاقات الشخصية بين أفراده، وكذلك توجهاتهم"[٢].

سنتتبع أثر النسق المعرفي في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) وتشكيل خطابها الثقافي، وفق نظرة شمولية، بوصف الثقافة ذلك "الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والمعتقدات والفن والقانون، والعرف وكل المقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوًا في المجتمع"[٣]، لأن البناء الثقافي بهذا المعنى – والمُشيد بتوجيه من النسق المعرفي – سيغمر وجود الإنسان جميعه، ويحيط به من كل جانب، حين يعد القيم الثقافية هي كل ما تطبع حياته وفكره وسلوكه، واتجاهاته المختلفة في المجتمع الذي يعيش في رحابه، بل ويشكل نسيجًا لمعتقداته وتقاليده، وتاريخه ولغته، وفكره وآدابه وفنونه.

فالبناء الثقافي نظام من التصورات الذهنية المتوارثة، التي يُعبر عنها بأشكال وسلوكيات رمزية، لتصبح القيم الثقافية – المثبتة بأثر من النسق المعرفي – عبارة عن "شبكة من أنظمة الإشارات القابلة للتغير والتأويل، وليست قوة قاهرة، وليست شيئًا تعزى

١ - مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٧، ص٥٨.
٢ - نظرية الثقافة (مجموعة من الكتاب): ت (علي سيد الصاوي)، سلسلة عالم المعرفة ٢٢٣ع، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٧، ص٢٩.
٣ - تعريف إداورد بيرنت تايلور للثقافة، نقلاً عن: مفهوم الثقافة من منظور سوسيوأنثروبولوجي، محسن أفطيط، أشغال المؤتمر السنوي (المفاهيم في العلوم الإنسانية)، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، مج ٢، فاس – المغرب ٢٠١٨، ص ص ٣٤١ - ٣٦٨

إليه سببيًا أحداث مجتمعية، أو سلوكيات أو مؤسسات اجتماعية، أو سيرورات علمية، بل هي نسق يمكن ضمنه إجراء توصيف كثيف قابل لفهم هذه الأشياء"[١].

ويُمثل النسق المعرفي مكونًا رئيسًا في شخصية الكاتب جلال أمين، وجزءًا مهمًا من تربيته، ولذلك سنلحظ أن المفردات الثقافية التي ظهرت في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) كثيرة جدًا، وشكلت في مجموعها خطابًا ثقافيًا؛ أسهم بفاعلية في تشكيل الخطاب السير ذاتي الكلي عند الكاتب، وقامت هذه المفردات الثقافية بأثر مباشر من النسق المعرفي.

وقد بدأ هذا النسق المعرفي في الظهور منذ البداية، بل وفي أول صفحات السيرة الذاتية، ولعل مرد هذا الظهور الملفت للنسق المعرفي بمفرداته وقيمه يرجع إلى طبيعة البيئة التي نشأ فيها الكاتب، فهي بيئة أدبية اهتمت بالثقافة والآداب بشكل كبير، وذلك بوحي وتوجيه من الأب الذي كان علمًا من أعلام الأدب والثقافة والفكر في مصر في العصر الحديث.

بل إن تسجيل الكاتب لسيرته الذاتية أمر يدل – في الأساس – على تأثره الشديد بالنسق المعرفي، وحسن اطلاعه وسعته، يقول عن ذلك: "**تذكرت بالطبع الأيام لطه حسين، وأوراق العمر للويس عوض، وزهرة العمر وسجن العمر لتوفيق الحكيم، وناهيك طبعًا عن كتاب حياتي لأبي أحمد أمين، الذي ظل بجواري دائمًا أعيد القراءة فيه المرة بعد المرة، حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب، وتذكرت أيضًا بعض السير الذاتية التي همت بها حبًا لمؤلفين أجانب، كالفيلسوفين البريطانيين برتراند راسل، وألفرد إيير، فأعدت القراءة فيها من جديد**"[٢]، تدل هذه الفقرة السابقة على مدى أثر النسق المعرفي في تدوين هذه السيرة حتى قبل أن يشرع الكاتب فيها، ودلت كذلك على ما يتسم به من تكوين معرفي واسع، وكيف ألزم نفسه بالرجوع إلى سير أعلام وأدباء عرب وأجانب، ليكون دربه ممهدًا وهو يخطو فيه أولى خطواته.

وظهر أثر النسق المعرفي بقوة في عدة قضايا ورؤى طرحها الكاتب، يمكن من خلالها أن نرى مدى مفصلية تأثير هذا النسق في فكر الكاتب ونفسه، وانعكاس أثر هذا

١ - كليفورد غيرتز: تأويل الثقافات، ت (محمد بدوي)، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٩، ص٩٨.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٧١.

النسق على خطابه الثقافي في السيرة الذاتية، فنجد مفردات هذا النسق تسير خطوة بخطوة مع الكاتب، وسرده لمختلف مراحل حياته، بداية من عهد الطفولة المبكرة.

وينطلق الكاتب في طرحه للرؤى الثقافية والأوضاع الثقافية من مستويين – بتوجيه لا تخطئه العين من النسق المعرفي، المستوى الأول منهما كان شخصيًا، حيث يبين أهم العوامل التي كونت شخصيته الثقافية وبناءه المعرفي، وذكره لأهم الكتب التي قرأها قديمًا وكان لها عظيم الأثر في بنائه معرفيًا، وكذلك بيّن هذا المستوى أهم النشاطات الثقافية التي قام بها قديمًا وحديثًا، أما المستوى الثاني فاختص ببيان رؤيته لحال المجتمع المصري ثقافيًا، سواء في طفولته وشبابه، أو في الوقت الحالي، راصدًا بدقة معالم التغير الحادث في وضع الثقافة في مصر، سواء على المستوى الجمالي أو الأدبي أو الفني... إلخ.

فمن المواضع التي تكلم فيها عن تكوينه الثقافي – وهي كثيرة في السيرة – ما نراه في فصل (مباهج الصبا)، من سرده كمية هائلة من الكتب العربية والأجنبية التي اطلع عليها في عام واحد، إبان دراسته الثانوية، ويرصد أيضًا قراءاته الهائلة على مدى عشر سنوات "**ثم انتقلت كبقية جيلي إلى قراءة محمود تيمور وتوفيق الحكيم وطه حسين والمازني والمنفلوطي، والروايات والمسرحيات المترجمة ترجمة بديعة، التي كانت تنشرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار المعارف، وغيرهما لجوتة وبرنارد شو وتوماس هاردي وأندريه جيد، وبعض مسرحيات سوفوكليس ... إلخ، قبل أن نصل في مطلع الشباب إلى نجيب محفوظ**"[1]، توقف جلال أمين أمام تكوينه الثقافي والمعرفي خلال فصل كامل، وتكلم فيه كذلك عن ذهابه إلى السينما ومشاهدته لأفلام عربية وأجنبية، وتكلم عن إجادته للغة الإنجليزية في عهد مبكر من عمره؛ مما أهله للاطلاع على روائع الانتاج العالمي أدبيًا وفكريًا، كما نراه في صفحة (٧٩) وما بعدها.

ويبدو أن اطلاع الكاتب كان واسعًا بدرجة كبيرة، لذا نراه يعود في صفحة (٨٥) ليعدد ما قرأه ثانية، وهي كتب مختلفة عن الكتب التي ذكرها سابقًا، فهي في الموضع

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٧٨ وما بعدها.

الثاني ممثلة بشكل كامل للأدب العالمي، بصورة متنوعة الاتجاهات، ومختلفة المشارب والثقافات.

ومما ركز عليه الكاتب من مفردات ثقافية – قامت في مجموعها بأثر من النسق المعرفي المُشكل لخطابه الثقافي، وصفه الدقيق والرائع لحال الثقافة في مصر منذ أن تفتح وعيه في أربعينيات القرن الماضي، فنجده من صفحة (٩٤) وحتى صفحة (٩٩) يصف حال السينما والفنون، مُبينًا انتشار الثقافة الراقية في مصر، كما يشيد بفهم الناس ووعيهم وذوقهم الراقي حينها، وإلمامهم بمستجدات الفن والغناء في مصر والعالم كله.

ووصل الاهتمام بالثقافة آنذاك أن الكاتب قام هو وأخوه بنشر قصص ومقالات في مجلات أدبية وهما لا يزالان بعد في بداية الصبا، إن الكاتب ينقل – بتحكم من النسق المعرفي – للقارئ صورة نابضة لمصر حين كانت الثقافة بما تتضمنه من فنون وآداب وأفكار ذات قدر، فعلى سبيل المثال يحكي لنا عن حفلات أم كلثوم "**كنت إذا سمعت عن قرب ظهور أغنية جديدة لأم كلثوم أترقب سماعها بفارغ الصبر، وأتخذ ما يلزم من استعدادات للإنصات إليها في حفلاتها الشهيرة في الخميس الأول من كل شهر، الذي أصبح لهذا السبب يومًا مهمًا في حياة المصريين**"[١]، لقد استطاع جلال أمين في هذا المستوى – أي وصفه لحال الثقافة في مصر قديمًا – أن يرسم صورة واقعية جدًا، قربت إلى الأذهان ما كان عليه المصريون من اهتمام بالغ بالفن والأدب، وظهر ذلك في حالة اليُسر التي مكنت طالبًا في الابتدائية أن يقرأ كتبًا لأدباء إنجليز أو فرنسيين بلغتها الأصلية، ناهيك عن سهولة وجود تلك الكتب ووصولها إلى كل أحد، وهو الأمر الذي لا نراه في الواقع المصري الآن.

وظهر أثر النسق المعرفي كذلك في توجيه كتابة جلال أمين خلال تدوينه لسيرته الذاتية؛ حين نرى أثر التكوين الثقافي والمعرفي السابق بيانه واضحًا وجليًا في أفكاره، تمثل ذلك في إحاطته بعلوم كثيرة استطاع توظيفها أثناء كتابته لسيرته الذاتية، فنجده محللاً متمكنًا للشخصيات، مما يدلل على قراءته في علم النفس، بشكل جعله يرسم بحرفية ودقة صورة لداخل الشخصية التي يصفها ولخارجها كذلك، فعل كل ذلك مع جميع الشخصيات

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ٩٧ + ٩٨.

التي تناولها أو تحدث عنها، وسنجده – بوحي من هذا – يعقد فصلاً كاملاً يقدم من خلاله شخصيات أخوته وعنوانه (الأخوة السبعة)، ولكننا نجده – رغم تبحره في علوم كثيرة – يحلل شخصيات أخوته نفسيًا وفكريًا وعقليًا، ولم يتطرق أبدًا إلى أي وصف جسدي "**كانت وسيلة حسين لإثبات أنه أعظم الناس، تحصيل أكبر قدر من الثقافة، وقد نجح بالفعل في تحقيق قدر من الثقافة يتجاوز بمسافة شاسعة ما حققه أي أخ أو أخت، وبل ومعظم من عرفت من المثقفين المصريين، وقد اقترنت هذه الثقافة الواسعة بموهبة حقيقية في الكتابة والتعبير عن النفس، وبسلاسة وجاذبية نادرين**"[١].

لقد تجلى أثر النسق المعرفي في تحليل جلال أمين لأخوته، ولمعظم الشخصيات التي احتك بها من سياسيين وأكاديميين في الجامعات، والمثقفين في الحياة الأدبية التي عايشها، وسنجد مثل هذا التحليل في صفحات كثيرة في هذا الفصل الذي أشرنا إليه، مثل صفحات (٥٦ – ٦٣ – ٦٨)، ونجده أيضًا في فصل (مباهج الصبا) يعود إلى تحليل بعض الشخصيات، ويخص بها الشخصيات التي عرفها في مطلع شبابه.

كما نلمس وجود النسق المعرفي في تكوين خطاب جلال أمين الثقافي في السيرة الذاتية؛ حين نراه يوظف علمًا آخر في توصيل فكرته، فنجده يتكلم عن علم الوراثة، وما لها من دور يراه مهمًا في تكوين بناء أي شخصية، وذلك في مطلع فصله (الأخوة السبعة) كتمهيد لتحليل شخصيات أخوته "**كان لدي اعتقاد واسع بأن الاختلافات الشاسعة بين شخصيات وميول أخوتي السبعة لا بد أن يكون مرجعها، قبل كل شيء، عامل الوراثة، فها نحن نشأنا في نفس البيت وذهبنا نفس المدارس ... فإذا بكل منا عالم مختلف تمامًا عن بقية الأخوة**"[٢]، ويكرر الكاتب حديثه عن عامل الوراثة، وأثره في تحديد صفات بعينها في شخصية الإنسان وإبرازها، على المستوى العقلي والنفسي والفكري، ويلح على أهمية هذا العامل، كما في صفحات (٤٩ – ٦٢ – ٩٥)، ولعل هذا الإلحاح يرجع إلى الاطلاع الواسع في ها العلم وما يُعزى إليه من أثر في بناء شخصية الإنسان بجانب

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٦٣.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٤٩.

عاملي البيئة والتنشئة، ويظهر أثر النسق المعرفي بوضوح في تكراره هذه المعلومات مرات كثيرة.

ويوجد ملمح آخر يعكس تأثر الخطاب السير ذاتي في (ماذا علمتني الحياة؟)، بالتكوين المعرفي العميق الذي بُنيت عليه شخصية الكاتب، هو تأثره الواضح بالكُتاب الأجانب – وبخاصة الإنجليز، وسنرى تصريحًا له في بداية سيرته يقرر فيه إعجابه الشديد بالأديب (جورج أورويل)، ثم نرى انعكاس هذا الإعجاب في كتابة جلال أمين وأفكاره، يقول: "**لقد كتب جورج أورويل، الكاتب الإنجليزي الشهير والأثير لدي، بصراحته المعهودة: (إن كتابًا في السيرة الذاتية لا يمكن أن يصبح محلاً للثقة إلا إذا كشف بعض الأشياء التي تشين صاحبها)، وأظن الرجل كان هنا على صواب، كما كان عادة**"[١]، يرى جلال أمين أن أديبه المفضل لا يخطأ، أو يجانبه الصواب في بعض أقواله وأفعاله، ويظهر أثر النسق في كتابة جلال أمين حين يتكرر استشهاده بجورج أورويل أكثر من خمس مرات طوال السيرة الذاتية، وذلك مثل صفحات (٢٨٣ – ٢٩٧ – ٣٨٢)، وهو ما يلقي الضوء على أثر النسق المعرفي في صياغة هذه السيرة الذاتية، وتكوين خطابها الثقافي.

ولن نعدم في طول السيرة الذاتية وعرضها؛ أن نجد كذلك أسماء كثيرة لأدباء عالميين ممثلين لمختلف الثقافات، إذ نجد الأدب الروسي، والهندي، والبنغالي، وأيضًا أنواعًا متعددة من الموسيقى، تدل على الوعي الفني والحس الجمالي، والوجدان التذوقي الذي تكون عبر السنين لدى الكاتب، كل ذلك صاغه وشكله النسق المعرفي، الذي تأصل بناؤه في شخصية جلال أمين من خلال مفردات ثقافية شديدة التنوع والثراء.

ومن تلك الاستشهادات التي تدل على معرفته العالية، وتنوعها، وظهور أثر النسق المعرفي في خطابه السير ذاتي، ذكره للشاعر ذي الأصل البنغالي (طاغور)، فيقدم موقفًا تأثر به من حياة الشاعر؛ فيقول عنه بداية: "**وبالفعل وجدت الشعر رائعًا وبدأ اسم طاغور يصبح محببًا إلى نفسي، ترجمت له وأنا في الخامسة عشر أو نحوها بعض أشعاره، ونُشرت أيضًا في مجلة الثقافة، ثم اقتنيت مجموعة أشعاره في مجلد واحد لا أزال أعتبره**

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٥.

من الكتب المحببة إلي"[1]، ويظل الكاتب يسرد قصته مع أدب طاغور قرابة الصفحتين، ويقدم ما تأثر به من أدبه وإبداعه، وإعجابه الذي لا يذوي بهذا الشاعر، مستدلاً على سمو الشاعر بموقف حدث له مع طفل صغير، وكيف كافئ الشاعر ذلك الطفل بأن كتب له مقطوعة شعرية قصيرة، ومن شدة إعجاب جلال أمين بهذه المقطوعة، يثبت نصها الإنجليزي في متن سيرته الذاتية، مصحوبة بترجمتها إلى العربية، في تجلٍ واضحٍ للنسق المعرفي في تشكيل الخطاب الثقافي في هذه السيرة الذاتية.

وليس ببعيد عن ذلك – أي أثر النسق المعرفي – ما نراه من انفتاح الكاتب على الأدب الروسي، والذي يقول أنه حدث بفضل أخيه (حسين)، فقرأ روايات دوستويفسكي، وتولستوي وتورجينيف، مؤكدًا أن مسرحيات تشيخوف قد استولت على قلبه لدرجة أنه كان يختار العروض المسرحية التي تعرض مسرحيات ونصوص تشيخوف في لندن[2]، شيّد هذا الثراء المعرفي نسقًا متماسكًا كان له بالغ الأثر في تميز سيرته (ماذا علمتني الحياة؟) في أسلوبها، وغنى المضامين وتنوعها، وثراء الأفكار وعمقها، فكانت هناك الفكرة والفكرة المقابلة، وكان الإقناع حاضرًا بقوة من خلال الحجج التي لا يعوزها الاستشهاد، مع سلاسة في الأسلوب بلغة قوية منتقاة بعناية.

ونلمح أثر النسق المعرفي في توجيه الخطاب الثقافي في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، حينما يتعرض الكاتب لحال التعليم في مصر، ويقارن حال التعليم بين أماكن مختلفة عاش فيها أو زارها، فيقدم لنا مشاهداته ورصده لوضع التعليم في الجامعات الحكومية في مصر، ومن قبل ذلك يصف ما مرّ به في المدارس التي تقلب فيها خلال المراحل التعليمية المختلفة، ثم ملاحظاته وهو طالب في كلية الحقوق، ثم ينقل ما كان يراه وهو أستاذ في جامعة عين شمس، وأتبع ذلك كله بمشاهداته في جامعة لندن، مُقيمًا مقارنة بديعة بين نظام التعليم في جامعات مصر وجامعة لندن، ثم ينتقل إلى وصف جامعة كاليفورنيا بأمريكا، طارحًا باختصار نبذة عن حال التعليم هناك، ويختم تأملاته عن التعليم

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ٨٣ + ٨٤.
٢ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص٨٢.

بوصف ما يتم في الجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ أن التحق بها وحتى وقت كتابة السيرة الذاتية.[١]

بل إنه أوقف فصلاً كاملاً على فترة عمله في جامعة عين شمس، وعنوانه (عين شمس)، وكانت فرصة سانحة ليتجلى النسق المعرفي في أوضح صوره، إذ تحدث جلال أمين عن التعليم من منظور أستاذ يعمل في الجامعة، ويحتك بالإدارة والأساتذة والطلاب "**فوجئت في حقوق عين شمس بعالم غريب تمامًا، فيه القليل مما يبهج والكثير مما يجلب الإحباط وخيبة الأمل، كان العميد رجلاً لا غضاضة به على الإطلاق**"[٢]، كانت هذه الكلمات هي السطر الأول في مفتتح الفصل الذي خصصه ليقدم فيه رؤيته عن حال الجامعات المصرية، مستندًا لفترة عمله في جامعة عين شمس، ويتضح من استهلاله بهذه الكلمات مدى المرارة التي ترسخت داخله من تلك الفترة، وظهر أثر النسق المعرفي جليًا من خلال رصده وتحليله لمواطن الخلل في العملية التعليمية برمتها، سواء على مستوى الأساتذة أو الإدارة أو أساليب التعليم والتقويم، وكان يصدر في تحليله ورصده عن خبرة سنين طويلة، وعن تجارب عديدة في بلاد وجامعات مختلفة.

والحقيقة أننا سنجد بصمات النسق المعرفي واضحة في كل فصول السيرة وحكاياتها، إما بشكل مباشر أو متوارٍ، ذلك أن سرد الكاتب يستند إلى تكوين معرفي وثقافي شديد الانفتاح؛ متنوع المصادر، فنجده – على سبيل المثال – يتكلم عن دور مصر الريادي والثقافي في الدول العربي، سواء على المستوى الفني (سينما – مسرح)، أو المستوى الأدبي (روايات – قصص – شعر)، أو المستوى الفكري مسهبًا في صفحة (١٣١) وما بعدها في تأصيل وجهة نظره تلك، وقد تأكدت هذه الفكرة لديه بعد أن مكث في الكويت أربع سنوات، وبعد زيارته كذلك لمجموعة من الدول ضمن زيارات (صندوق التنمية الكويتي).

وكان جلال أمين وهو يكتب يشعر بأهمية هذا النسق المعرفي في تشكيل خطابه الثقافي في سيرته الذاتية، لذلك نراه يفرد مساحات أكبر ليتمدد هذا النسق، ويظهر تأثيره

١ - تعددت الصفحات التي تحدث فيها جلال أمين عن حال التعليم ووصفه، فمن هذه الصفحات (١٠٨ – ١١٠ – ١١١ – ١٤١ – ٢١١ وما بعدها).
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢١٢.

من خلال بيان أركان هذه الثقافة التي تكونت بها شخصيته وأسهمت في بنائها، ويعود ليكرر هذه المكونات مرة بعد أخرى، وسنرى ذلك واضحًا – بخلاف فترة الطفولة والصبا – في حديثه عن فترة البعثة، وقد أفرد لها فصلاً كاملاً عنوانه (البعثة)، ويقول عنها أنها من أخصب فترات تعلمه ونضوجه العلمي والثقافي، وتفتح وعيه الفكري على الآخر، وذلك من خلال صفحات كثيرة تبدأ من صفحة (١٤٦).

كما أننا لا يمكن أن نغفل أثر النسق المعرفي وتوجيهه؛ في طرح جلال أمين لقضايا كثيرة ذات طابع فكري وثقافي بحت، ففي كل فصل لن نعدم وجود قضية أو أكثر ذات صبغة ثقافية في الأساس، ويأتي تناول الكاتب لها بوحي من النسق المعرفي الحامل لمفردات ثقافية كثيرة، شكلت في مجموعها وعي الكاتب وثقافته الواسعة، فمن هذه القضايا حديثه عن اللغة الإنجليزية، وتساؤله: هل يجب أن يُدّرس بها لطلابه وهم على أرض عربية (مصرية)؟ وهل هي لغة العلوم فعلاً في العصر الحديث؟ وهل من الخيانة أن يفعل ذلك؟ وأخذ يقدم فكرته؛ ويعضد رأيًا ويدحض آخر في صفحة كاملة خصصها لهذه القضية الثقافية المتعلقة بالهوية.[١]

ومن القضايا ذات الطابع الثقافي أيضًا، مناقشته لأزمة التبعية التي تعاني منها الأمة العربية في عصر العولمة، ويؤكد مرارًا – بوصفه أكاديميًا ومتخصصًا في علم الاقتصاد – على أن التبعية في الوقت الحالي هي تبعية ثقافية لا اقتصادية، ونرى هذه المحاورة الثقافية في صفحة (٣١٢).

ولقد أتاحت كتابات جلال أمين وإسهاماته الفكرية والأدبية له الدخول إلى معترك الحياة الأدبية والثقافية، وبذا فإنه يضيف إلى تأثير النسق المعرفي بعدًا آخر – أثبته في خطابه الثقافي في السيرة – حين يحكي عن مواقفه مع رجالات الثقافة والأدب في مصر وغيرها، ويكون له صوت مسموع في أروقة المثقفين، وانعكس ذلك النسق فيما يخص هذا البعد في خطابه الثقافي في كتاب (ماذا علمتني الحياة؟)، فنجده في أكثر من موضع فيها يبدي رأيه في قضايا ثقافية مثارة، منها رأيه في أفلام المخرج يوسف شاهين، وانتقاد لفلميه (المصير – المهاجر) كما في صفحة (٣٠١)، أو نراه وهو يهاجم رجاء النقاش حين رآه

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٨٣.

يمدح الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك، ويصفه براعي الثقافة في مصر، وأن له دورًا كبيرًا في تطور الثقافة وازدهارها، كما يبدي رأيه في مقال ضافٍ عن رواية (الخبز الحافي) لمحمد شكري ويصفها بالابتذال ويهاجمها[١].

نرى أثر النسق المعرفي متجليًا بقوة في هذه النقطة، حين يكتب بالتفصيل وعلى مدار أكثر من ثلاث صفحات عن قصة حدثت بينه وبين الكاتبين يوسف إدريس وثروت أباظة، معلنًا وقوفه مع إدريس وأحمد بهاء الدين ضد ثروت أباظة، وأنه كتب في هذا الصدد مقالاً يهاجم فيه أباظة، ويعلن رأيه فيه بكل وضوح، وأن نظرته إلى أباظة نظرة سلبية، وليس له من الأدب والثقافة حظ أو نصيب.[٢]

ومن أبرز تأثيرات النسق المعرفي في سيرة جلال الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، حديثه عن أنماط المعيشة لا بوصفها مظهرًا اجتماعيًا، بل بمظهرها الحضاري وأنماط التفكير السائدة فيها، حدث هذا معه في أربعة بلدان تكلم عنها، هي (مصر – الكويت – إنجلترا – أمريكا)، فيصف نمط التفكير في كل بلد منها، وكذلك نمط الحياة المترتب على هذا التفكير "**فإذا بي أشعر بمجرد أن وطئت قدماي أرض الولايات المتحدة وكأني انتقلت إلى كوكب آخر مختلف تمامًا عن كوكب الأرض، وأدركت على الفور بأن الذي أراه ليس مجرد الظاهرة الأوروبية، ولكن ظاهرة جديدة بمعنى الكلمة**"[٣]، ليظل الكاتب بعدها وعلى مدار فصل كامل (لوس أنجلوس) يصف مشاهداته في أمريكا، واصفًا نمط الحياة الثقافية والحضارية، بما فيها من أغان وأفلام وملابس ومنهجية التفكير ... إلخ، في تجل عميق للنسق المعرفي، وأثره البالغ في بناء الخطاب الثقافي في هذه السيرة الثرية، وتشييده بناءً ثقافيًا من خلالها قوامه التعددية، والانفتاح على الآخر، وهو أمر كان المؤلف يبتغيه ويستهدف ترسيخه عند المتلقي.

ثالثًا: نسق التصريح والخطاب السياسي

لم يكن الخطاب السياسي غائبًا عن الخطاب السير ذاتي الكلي لدى جلال أمين، فقد جاء خطابه شديد التنوع متعدد السياقات، لذلك فإن حضور البعد السياسي كان واضحًا

١ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص٣٠٠.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٩٨ وما بعدها.
٣ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٦١.

وملموسًا، ومتشعب الاتجاهات في السيرة الذاتية بوصفه "بنية أو نظامًا من المفاهيم والكلمات، وحاملاً لقيم ودلالات سياسية، كما أنه مرتبط بفاعلين ومؤسسات ذات أيديولوجية معينة"(١)، ومن جهة أخرى نلحظ الخطاب السياسي في السيرة بشكل بيّن، بوصفها سيرة مثقف له أفكاره المعلنة، وله مواقفه وآراءه ومبادئه، والمثقف في كل الأحوال له حضوره المجتمعي من خلال كتبه ومقالاته، وأطروحاته، ومن هنا – وكما يؤكد إدوارد سعيد – نجد أنه من الضروري "أن يستمسك المثقف بقيم عليا مثل الحرية والعدالة، له ولغيره، وعدم قبول الحلول الوسطى فيما يتعلق بهذه القيم"(٢).

وسنتتبع في الصفحات التالية تشكُل الخطاب السياسي في البنية السير الذاتية عند الكاتب، ومدى تأثر هذا الخطاب بنسق التصريح أو عكسه؛ المواربة أو التلميح، ويرجع بروز هذا الخطاب السياسي في كتاب "ماذا علمتني الحياة؟" إلى الارتباط بين السياسي والاجتماعي، حيث برع جلال أمين في الرصد الاجتماعي ومن ثم كان عليه الالتفات؛ والإلمام بشكل واسع بالجانب السياسي، ومتابعة الخطابات السياسية التي تتبناها النظم التي عايشها، بدءً من الملكية حتى آخر نظام حكم عاصره، فالخطاب السياسي وفق هذا المفهوم، ما هو إلا "انعكاس علاقة السلطة بالمجتمع، وتطوره وثقافته وكافة ظروفه، وعلى هذا فالخطاب السياسي نتاج التفاعلات، والصراعات والأزمات بين المجتمعات السياسية، فضلاً عن خضوعه لنفوذ السلطة وتأثيرها، كما أنه إفراز للمثيرات الاجتماعية والسياسية التي تشكله، ومن ثم أصبح لكل مجتمع خطابه السياسي الخاص"(٣).

ولقد كان تشكيل الخطاب السياسي في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) تشكيلاً مغايرًا لبقية الخطابات، حيث ساد الحذر والتحسس لموضع الكلمات – إن جاز التعبير – في العملية السردية بكاملها، سواء ما يختص بالتاريخ السياسي الذي عايشه، أو الواقع السياسي الذي يعاصره وقت كتابة السيرة ونشرها عام ٢٠٠٧.

١ - ميلود بلقاضي: الخطاب السياسي بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب، ط١، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ٢٠١١، ص٤٨.
٢ - إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، ت (محمد عناني)، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٦، ص١١.
٣ - محمود عكاشة: لغة الخطاب السياسي – دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، ط١، دار النشر للجامعات، القاهرة ٢٠٠٥، ص٦.

ونستطيع أن نرى جلال أمين قد أبدى رأيه من خلال نسق تصريحي؛ وأسلوب قوي اللغة، واضح الأفكار فيما يختص بحكم عبد الناصر وحكم خلفه السادات، وبصورة أقل منهما فيما يخص الحكم الملكي من قبل، ونسق تلميحي بصورة فيما يخص فترة حكم مبارك، ونظام حكمه الذي صدرت فيه السيرة الذاتية، حيث مرّ عليه مرور الكرام دون مدح أو نقد، وإن كان القارئ سيفهم من إشارات بسطة وتلميحات عابرة؛ أن حالة الذم أقرب من المدح في رؤيته لنظام مبارك وطريقة حكمه.

ومن المهم بداية أن نؤكد أننا في هذه الدراسة نتتبع أثر الأنساق – ومنها الأنساق المُشكلة للخطاب السياسي – في تشكيل خطاب المؤلف الباني لسيرته الذاتية، ولا يعني هذا بالضرورة تفصيل آراء الكاتب السياسية، أو أفكاره الاجتماعية والاقتصادية، إلا بالقدر الذي يبين انعكاس هذه الآراء بأنساقها الأصلية في تشكيل الخطابات المتنوعة لهذه السيرة الذاتية، وبذلك يصبح البحث غير معني – في المقام الأول – بتتبع آراء المؤلف جميعها، أو الوقوف على مدى صحتها وخطئها.

ويمكن أن نحدد أثر النسق التصريحي / التلميحي في بناء الخطاب السياسي في السيرة، وذلك باستعراض القضايا التي سجلها الكاتب بأثر مباشر من هذا النسق، وذلك فيما يلي:

١. بدايات العمل السياسي

يكاد ينعدم ذكر المفردات السياسية أو نلمح أثرًا للنسق التصريحي، في الجزء الذي يحكي فيه الكاتب عن طفولته ونشأته، أو حديثه عن أبيه وأمه وأخوته، ويبدو أن الوالد (أحمد أمين) قد اختط لنفسه وعائلته خطًا يبتعد به عن الانخراط في أمور السياسة وأعمال السلطة، أو الارتباط بأي تكتل سياسي أو حزب من الأحزاب، إذ لم يتطرق جلال أمين إلى ذكر أي نشاط أو ميول سياسية له أو لأي أحد من أفراد عائلته، اللهم إلا ما كان من أخيه عبد الحميد؛ الذي ألقى خطبة ضد الملك وكاد يقبض عليه بسببها [١]. وفي العموم كانت والدته تذهب إلى المدارس والجامعات لتصطحب أولادها حين تعلم بوجود اضطرابات، أو مظاهرات ضد الملك أو تكتنف البلاد بسبب حدث مهم.

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٥٤.

ولكن البداية الحقيقية لنشاطه السياسي (والوحيد) كما يذكر، حين أقنعه صديقه (علي مختار) بالانضمام إلى حزب البعث السوري، وقد أفرد جلال أمين لهذه الفترة فصلاً بعنوان (البعث)، سرد من خلاله تجربته السياسية مع هذا الحزب حين استحوذت عليه فكرة القومية العربية، وأخذ يحكي عبر مفردات سياسية مسيرته مع حزب البعث، حتى استقالته منه بعد السفر مباشرة إلى لندن، مبتعثًا للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه.

يقول الكاتب في بداية هذا الفصل: "**تعرفت خلال سنوات الجامعة – لأول مرة – على فكرة العروبة والوحدة العربية، حدث هذا عن طريق تعرفي على مجموعة من الطلبة العرب الأردنيين والسوريين واللبنانيين ... كان معظمهم أعضاء في حزب نشأ في سوريا، وقالوا لنا: إن اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي**"[1].

كان أثر النسق التصريحي واضحًا بقوة في هذا الفصل، حيث أخذ الكاتب يحكي عما لمسه من أثر مصر الريادي والسياسي في بقية الدول العربية، وأنهم يعرفون ذلك الدور المهم لمصر ومفكريها وأعلامها. كما حكي قصصًا تتضمن وصف مقابلته لميشيل عفلق (مؤسس حزب البعث)، وحلل شخصيته في لغة سردية قوية، مقرًا بأن حماسة الشباب كانت مسيطرة عليه وقتذاك؛ وانعكست هذه الحماسة في شدة إيمانه بفكرة القومية العربية، وتعصبه لحزب البعث وأفكاره، وفي المقابل يرى الهدوء والطمأنينة من جانب ميشيل عفلق.

ويؤكد الكاتب في آخر الفصل أن "**هذه هي أول تجربة لي؛ وآخر تجربة أيضًا في الانضمام إلى حزب سياسي، وهي تجربة تكاد تكون صبيانية أكثر منها تجربة جادة في العمل السياسي، إذ لم أكن قد بلغت العشرين حينما انضممت إلى حزب البعث، وتركته وأنا في الثالثة والعشرين**"[2]، لقد كانت تجربته الأولى في عالم السياسة قصيرة جدًا، ولكنها تركت أثرًا بالغًا فيه، وفي تشكيل نسق تصريحي ذي طابع شخصي سينعكس بقوة في تكوين خطابه السياسي، وبالأخص عند تسجيله لسيرته الذاتية، ومع قصر هذه المدة التي انضم فيها إلى حزب البعث فإنها سببت له أذى بالغ من بعض الحكومات،

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٢٩.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ١٣٤ + ١٣٥.

التي تعاقبت فيما بعد على حكم مصر، كما ذكر هو في نهاية هذا الفصل في صفحة (١٣٩).

٢. موقفه من ثورة يوليو

ظهر تأثير النسق التصريحي بقوة في طرح الكاتب لرأيه أكثر من مرة في ثورة يوليو، ونظام الحكم الناصري، إذ خصص لها فصلاً مستقلاً بعنوان (ثورة يوليو)، احتل صفحات كثيرة (١٧١ – ٢١١)، ومرد هذا الأثر البالغ للنسق التصريحي في الخطاب السياسي المتعلق بهذه الثورة إلى أمرين، أولهما أن بداية تفتح وعي الكاتب ونشاطه كان متزامنًا مع هذه الثورة في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وكذلك التحاقه بالجامعة، وكان متابعًا جيدًا لما يحدث في بلاده وبقية الأقطار العربية، لذلك بدأ في تكوين قناعات وآراء سياسية خاصة به، ثاني هذين الأمرين أن موقفه من نظام الحكم الناصري ثابت بين القديم والحديث، وغاية ما هنالك أن مفردات هذا النسق دفعته للتعبير عن هذه الآراء أكثر من مرة من خلال تبني خطاب سياسي قاسٍ، على امتداد السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، بعبارات مختلفة، ومفردات مغايرة ولكن الفكرة واحدة في النهاية.

لقد استهل الكاتب حديثه في بداية الفصل المتعلق بالثورة؛ بأن بيّن موقف أبيه وأمه ومنهجهما تجاه السياسة، أو الاشتغال بها "**لم يكن أبي بطبعه يحب السياسة وحديثها، وكان يميل إلى الاعتقاد بأن من يشتغل بالسياسة لا بد أن يكون لديه؛ بصفة عامة؛ ميل طبيعي للخداع والكذب، لا أتذكره قط وهو يتكلم عن سعد زغلول أو مصطفى النحاس ... أتذكر أيضًا أنه عبر عن رضاه التام لقيام ثورة ١٩٥٢، مثل الغالبية العظمى الذين لم يأسف عدد يذكر منهم على ذهاب الملك فاروق ... غني عن البيان أن أمي لم تكن تهمها أمور السياسية في كثير أو قليل**"[١]، وأخذ الكاتب خلال صفحتين كاملتين في التمهيد لرأيه في ثورة يوليو، وأكّد ثانية على عدم اشتغال أحد من أسرته بالسياسة، وأن رأيه القادم لا يعدو أكثر من تأملات فرضتها دراسته الأكاديمية، وخلاصة تفكيره العميق في هذا النظام السياسي أو ذاك، ورصد مدى انعكاس سياسات النظام على الشعب سلبًا او إيجابًا.

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٧١.

وقد مرّ الكاتب في تعبيره عن ثورة يوليو بتوجيه من النسق التصريحي بثلاثة محطات، كان رأيه متوافقًا في كل مرحلة من هذه المراحل مع المعطيات التي ينبني عليها هذا الرأي، فنراه في أول محطة مستبشرًا بثورة يوليو، ومعبرًا عن عظيم آماله بها، ومعلقًا طموحات وأمنيات كثيرة عليها "**لا عجب إذن أن كان سرورنا غامرًا لقيام الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكنت حينئذٍ في السابعة عشرة من عمري، وأن تبادلت التهاني مع أصدقائي بفرح حقيقي، عندما شاهدنا سيارات الجيش تسير ببطء شديد على كورنيش الإسكندرية، وقد وقف عليها بعض الجنود الفخورين بأنفسهم**"[١]، كان جلال أمين مثله مثل بقية عموم الشعب؛ مسرورًا – كما أخبر بذلك – وكان مرد فرحته إلى التخلص من الملك الفاسد، وأن شبانًا صغار السن، نظاف اليدّ، شديدو الطموح ويسعون إلى الإصلاح؛ سيتولون دفة القيادة، ويقودون مصر إلى واحة فيحاء ظليلة.

ولكن المحطة التالية سرعان ما تظهر فيعلن رأيه بصراحة وقوة؛ إذ لم تدم فرحة جلال أمين أكثر من عامين، ويتجلى أثر النسق التصريحي أكثر في هذه المحطة الثانية، حيث يستفيض المؤلف فيها، ويتكلم عنها بإسهاب، وتتغلب جمل ثقافية ذات طابع سياسي تحمل معاني الذم وعدم الرضا، من خلال بسط الكاتب لأسباب حنقه وغضبه على ثورة يوليو ورجالاتها، وخصّ بالذكر منهم جمال عبدالناصر، يقول: "**أصبت بأول خيبة للأمل في الثورة عندما سمعنا في مارس ١٩٥٤ بنشوب خلاف بين رجال الثورة وعزلهم لمحمد نجيب من رئاسة الجمهورية، كنا نعشق محمد نجيب عشقًا ... وقد انضممت إلى اعتصام قام به الطلبة في داخل قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، مصممين على عدم ترك مكانهم حتى يعود محمد نجيب إلى منصبه**".[٢]

وكثُر بعد ذلك حديث الكاتب – من خلال جمل ثقافية كثيرة – وتحليله لسبب تغير رأيه في ثورة يوليو، وقدّم كثيرًا من الحجج والأسباب التي دفعته إلى تغيير رأيه في جمال عبدالناصر ونظامه، فقد رأى أن عبدالناصر مثّل ظاهرة صوتية في هذه الفترة الحرجة من عمر مصر، حيث تعرضت فيها البلد لهزائم عسكرية متتالية، وزاد حنقه على عبد الناصر

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٧٣.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ١٧٣ + ١٧٤.

حين سمعه يقول يوم حادث المنشية: أنه الذي علم الشعب المصري العزة والكرامة، كما نراه يرصد عملية عسكرة البلاد في عهده، وأبرز القوة الغاشمة التي ضرب بها عبدالناصر معارضيه، وغضب أكثر على عبدالناصر بعد فضّه الوحدة العربية عن سوريا، وتكلم جلال أمين كذلك عن تشكُّل الحقبة الناصرية في الستينيات من القرن الماضي، وخلاصة هذه المرحلة أن النسق التصريحي فيها قد أظهر حالة السخط والتذمر في خطاب الكاتب السياسي، والحنق التام على النظام الناصري، لأن آماله في ثورة يوليو قد تقوضت، وتحطمت طموحاته في الثورة ورجالها، ناهيك عن مآخذه الجمة على عبدالناصر تحديدًا.[١]

أما التحول الثالث الذي يظهره النسق التصريحي في الخطاب السياسي تجاه الحقبة الناصرية؛ فيُظهر مدى تغلغل هذا النسق في عموم بناء الخطاب السير ذاتي لديه، فقد ظل جلال أمين عند رأيه الحانق من عبدالناصر، حتى ظهر في المشهد السياسي ما غيره "**ولم تتغير مشاعري نحو عبدالناصر مرة أخرى، إلا في متصف السبعينيات، عندما رأيت حجم التنازلات التي بدأ يقدمها أنور السادات لإسرائيل والولايات المتحدة، وبدأت إنجازات جمال عبدالناصر في مجالات الاقتصاد والسياسية الخارجية والعربية، تبدو لي في ضوء مختلف تمامًا وإيجابي للغاية، بمقارنتها بخطايا السادات في كل هذه المجالات**"[٢]، وهكذا يتجلى أثر النسق التصريحي في تشكيل الخطاب السياسي فيما يخص رأي الكاتب في الحقبة الناصرية، ورؤيته لثورة يوليو، وأظهر النسق هذا الرأي في تراتبية متسلسلة، وعبر تدرج يوضح مراحل هذا الرأي وتطوره؛ ومعطيات كل مرحلة فيه.

٣. موقفه من نظام السادات

كان النسق التصريحي أكثر وضوحًا في تشكيل الخطاب السياسي المعبر عن هذه الفترة، ويمكن أن نرى المفردات السياسية التي تعلقت برؤية الكاتب لحكم السادات تفيض غضبًا، وذمًا لا رحمة فيه، ليتجلى أثر النسق التصريحي في بيان هذه الحقبة قويًا وصريحًا من خلال اللغة السردية، والأفكار المطروحة، والرأي الذي لم يعتريه تغير أو تبدل كما هو الحال في ثورة يوليو، لقد تحدث جلال أمين كثيرًا عن رأيه في السادات،

١ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ فصل (ثورة يوليو)، ص١٧١ وما بعدها.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٩٧.

مجاهرًا برفضه التام لنظام حكمه، وحنقه الكبير على كامل سياساته، وتبدى ذلك في أول حديثه عليه، حين سخر من كل ما يتعلق به "**كان الرجل منذ سمعنا اسمه لأول مرة بعد قيام الثورة ١٩٥٢، يثير السخرية والرثاء أكثر مما يثير الاحترام أو الحب، وكان كل ما يصل إلينا مما يتعلق بسلوكه أو أقواله أو مواقفه يؤكد صحة هذا الموقف السلبي منه ويقويه، كانت صورته في أذهان الناس صورة رجل غير جاد، ومغامر ولكن لمصلحته الشخصية**"[١]، وأخذ الكاتب في سطور ليست بالقليلة يصف السادات بهذه الصورة، التي تظهره كشخصية هزلية، لا تصلح لحكم مصر، والحق أن كل ما يتعلق بالسادات وحقبته، يمتلأ بألفاظ السخرية والاستهزاء، مع أخرى ذات دلالة على الرفض والغضب، مع الذم والتخوين بالطبع.

ومرد هذا الموقف السلبي – الذي أبرزه النسق التصريحي المُشكل للخطاب السياسي في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) – من الكاتب تجاه حكم السادات، ورفضه لسياساته، يرجع إلى عدة أسباب لم يقدر الكاتب على تخطيها – كما أخبر بذلك، من هذه الأسباب تبني السادات خطاب السلام عقب الانتصار مباشرة، مما جعل جلال أمين يفقد صوابه من هذه اللهجة التي شكلت له صدمة كبرى، إذ كان يرى أنه لا محل لها من الإعراب في هذا التوقيت، ومنها أنه رأى السادات يقدم تنازلاً بعد آخر لليهود ولأمريكا فيما يتعلق بحقوق؛ يرى جلال أنها حقٌ أصيل للعرب ولمصر ولفلسطين، ومنها أيضًا أن الكاتب عارض وبقوة – بحكم تخصصه الاقتصادي – اتجاه السادات نحو الانفتاح، وتبنيه النظام الرأسمالي، وارتمائه بشكل كامل في أحضان أمريكا، ومنها كذلك أن السادات عصف بكل معارضيه – في أواخر حكمه – ونكّل بهم، وحبس كل النخب والرموز في مصر وقتذاك.[٢]

لم يتغير رأي الكاتب في نظام السادات، حتى بعد انتصار ١٩٧٣، بل – على العكس من ذلك– لقد أحس بخيبة الأمل، دفعته لمغادرة مصر هربًا من المشاعر السلبية، كما يقول في سيرته الذاتية "**كانت خيبة الأمل التي أحدثتها في نفسي تطورات السياسة**

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٩٨.
٢ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص١٩٩ وما بعدها.

المصرية بعد عبور الجيش لقناة السويس في أكتوبر ١٩٧٣، أحد الأسباب التي ساعدت على ذهابي للعمل في الكويت في فبراير ١٩٧٤، وقد ظلت الأخبار تأتينا طوال الأربع سنوات التي قضيتها هناك بنبأ سيء بعد آخر ... فقد بدا لي أن السادات على نحو لا يقبل الشك وكأنه لا يفعل أكثر من تنفيذ مخطط أمريكي / إسرائيلي"[١]، وبذلك نتبين أثر النسق التصريحي في توضيح الخطاب السياسي الذي لم يحد عنه الكاتب تجاه السادات، ونظامه وحكمه، وكما أشرنا فقد اكتظت التعبيرات بمفردات لغوية تعبر عن الخيبة، والسوء، والخيانة ... إلخ.

ولكن أثر هذا النسق التصريحي في الخطاب السياسي لم يتوقف عند هذا الحدّ، بل أظهر حيادية الكاتب فيما يخص الحكم الكُلي على حقبتي عبدالناصر والسادات، فقد عبّر في صفحات تالية عن غضب الموالين للسادات منه، وكذلك الحال بالنسبة لموقف المؤيدين للحقبة الناصرية، كان ذلك عقب سلسلة مقالات كتبها منتقدًا من خلالها سياسة الأول والثاني "**أثارت هذه المقالات بالطبع غضب بعض المسؤولين من المتحمسين للسادات أو المستفيدين منه، ولكنها أيضًا أغضبت بعض المتحمسين لعبدالناصر، حتى عاتبني مرة الناصري العتيد محمد عودة على ما اعتبره قسوة زائدة في مقالاتي على ثورة يوليو**"[٢]، ليدلل أثر هذا النسق على هدف يريده الكاتب ويبتغي إيصاله إلى المتلقي، وهو أنه لا يعد نفسه ناصريًا أو ساداتيًا؛ بقدر ما يسعى نحو تكوين رأي صحيح، ورؤية قويمة عن نظم الحكم بكل عيوبها، أو إصلاحاتها، وأن ما ينتهجه من آراء مجرد تأملات وأفكار دون تعصب أو تحيز، حتى لو اعتبره البعض محسوبًا على هذا النظام أو ذاك.

وتوارى النسق التصريحي بمفرداته الحانقة والغاضبة، أو الموالية أوالمحايدة، ليظهر نسق تلميحي (كنائي) حين تحدث جلال أمين عن حقبة مبارك، ناهيك عن ضيق المساحة التي احتلها الخطاب السياسي بمفرداته وقيمه حين تناول عصر مبارك، إذ نلمح فوق ضيق المساحة المخصصة لهذه الحقبة؛ شيوع لهجة الحذر في الكلام وعدم التعبير بشكل قاطع، أو صريح برأي مكتمل في هذا النظام القائم وقت إصدار السيرة الذاتية بالفعل، لأن الكاتب قد بدأ تسجيل سيرته وتدوينها ثم أصدرها في عهد مبارك، وأثناء

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٠١.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٠٦.

حكمه، ومن الواضح أن جلال أمين لا يحب الصدام مع أي نظام سياسي، فهو من جهة أكاديمي له آرائه وأفكاره، وهو يعتز كثيرًا بمبادئه وقيمه، ولكنه من جهة أخرى – كما وصف نفسه وعائلته من قبل – يتجنب الدخول في صراعات سياسية مباشرة.

ويُفهم من النزر اليسير الذي ورد من خلال النسق التلميحي (الكنائي)، فيما يختص برؤية الكاتب تجاه حكم مبارك، عدم رضا الكاتب عن السياسات التي انتهجها نظام مبارك في كل الملفات "**فبعد نحو عام من حكم مبارك تبين لنا أن آمالنا في حرية حقيقية للصحافة كان مبالغًا فيها جدًا، وسرعان ما عادت القيود شيئًا فشيئًا ... فبعد عشرين عامًا من استلام مبارك للسلطة تبين لنا أن نفس أسباب السخط على سياسات السادات استمرت في عهد مبارك، وأن الفرق الوحيد بين العهدين هو في أسلوب تطبيق هذه السياسات**"[1]، لم يستمر أثر النسق التلميحي في الظهور بعد ذلك؛ ليبسط رؤية الكاتب في حكم مبارك ونظامه، إذ استغرق الأمر كله جزءًا من صفحة فقط، في مقابل تمظهر النسق التصريحي من خلال صفحات كثيرة جدًا، مُقدمًا رؤية الكاتب في حكم النظامين السابقين، الناصري والساداتي.

ولم يتوقف أثر النسق التصريحي في تشكيل الخطاب السياسي في السيرة الذاتية لدى الكاتب عند بيان رأيه في نُظم الحكم فقط، ولكننا سنرى تجلياته في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) من خلال صفحات أخرى كثيرة، وبالتحديد فيما يخص قضيتين، أولهما موقفه من اليهود الذين احتلوا أرض فلسطين، إذ نرى كثرة الجمل الثقافية التي تدل على الرفض التام لهذا الكيان الغاصب، أو التساهل في التطبيع معه، أو حتى عقد سلام مع هذه الدولة، لذلك كان موقف السادات منهم أحد الأسباب القوية لرفضه التام لنظام السادات.

فقد تجلى النسق التصريحي فيما يخص هذه القضية عبر عبارات وألفاظ كثيرة، وكذلك من خلال سرده لبعض القصص التي تبين أثر الصهيونية العالمية في تسيير أمور العالم، منها ما حكاه عن مقتل صديقه الجامعي الأمريكي، الذي دعاه للعمل في جامعة كاليفورنيا بعدما تجرأ ووجه سهام النقد إلى الصهيونية، ووصل الأمر بالكاتب إلى معاداة

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٠٦.

أحد أساتذته في كلية الحقوق، ومهاجمته في مقالات نشرها في الصحف، بعد دعوة هذا الأستاذ إلى إحلال السلام، ومحاولة التعايش مع الآخر، في جو يسوده التفاهم والوئام، الأمر الذي يعارضه جلال أمين جملة وتفصيلاً.(١)

أما القضية الثانية التي ظهر أثر النسق التصريحي من خلالها، وشكلت حجرًا مهمًا في بنائية الخطاب السير ذاتي لجلال أمين، فهي قضية تحولاته الفكرية، وقد بسط هذه القضية في فصل مخصص كان عنوانه (التراثيون الجدد)، وقد بيّن في هذا الفصل أنه آمن بالماركسية واعتقد في صلاحها المطلق، موضحًا أنه كان يتبنى الاشتراكية بمفهومها العام، وليس الاشتراكية العربية التي تبناها النظام الناصري، وحاول فرضها على الناس خاصتهم وعامتهم، ثم أقرّ برفضه للاشتراكية وتحوله للمنطقية الوضعية بعد ذلك، وشرح أيضًا كيف تحول إلى الاعتقاد اليقيني بدور الدين المهم في إحداث نهضة الأمم، وبخاصة الأمة العربية أو الشرقية.(٢)

ولا يهمنا في هذا الصدد بيان معتقدات الكاتب الفكرية، أو توجهاته الأيديولوجية، بقدر ما نتتبع تجليات النسق المُشكل لخطابه السياسي في هذه القضية أو تلك، إذ يتضح أثره من خلال المصطلحات والمفردات السياسية شديدة التركيز والوضوح، وتمتاز كذلك بقوة التعبير عن الفكرة المطروحة، مع دقتها وتحديد مفاهيمها، لتتضام هذه المفردات جميعها مشكلة نسقًا قائمًا، يتحمل دلالات قوية التعبير عن مجمل آراء الكاتب في النظم السياسية المختلفة، وأبرز التوجهات الأيديولوجية التي عرفتها مصر حقبة بعد حقبة.

وكان هذا النسق التصريحي يتجلى بقوة حين يكون التعبير مختصًا ببيان آراء الكاتب حول نظام حكم معين، مثل ما رأينا في آرائه عن حكم عبد الناصر والسادات، أو يتوارى ليعلن عن نفسه بحذر شديد (نسق تلميحي) فيما يخص نظام حكم آخر كما رأيناه في حكم مبارك، ولكن على جميع الأحوال سواء أكان أثر النسق ظاهرًا أم متواريًا؛ فإن الموضوعية كانت ديدن الكاتب، والحيادية السياسية لا تفارقه، ليأتي النسق التصريحي أو

١ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص١٢٦ فيما يخص موقفه تجاه التطبيع مع الاحتلال الإسرائيلي، ومعاداته لأحد أساتذته عندما رآه يتبنى خطاب السلام ومعايشة الآخر + ص٢٧٣ يحكي فيها عن مقتل أستاذ جامعي أمريكي صديق له على يد الصهيونية العالمية، بعد أن تجرأ ونقدها علانية.

٢ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص٣٠٤ وما بعدها، إذ يوضح عملية تحوله فكريًا بشكل تراتبي من الماركسية إلى المادية الجدلية... إلخ، ثم حديثه في ص١٨٧ وما بعدها عن الاشتراكية كما آمن بها، في مقابل الاشتراكية العربية والقومية كما نادى بها النظام الناصري، مبينًا موقفه الرافض لها.

التلميحي في مجمله معبرًا بدقة عن رأي الكاتب المستند إلى موضوعية ورصد دقيق، وتحليل سليم، وحجج مدعومة بالأرقام.

ولا يمكن أن نغفل في الوقت ذاته الجانب الشخصي للكاتب، بما فيه من مشاعر ذاتية، والتي كان يحاول كبتها، ولم يُظهر أبدًا رأيه السياسي المستند على حكم انطباعي أو عاطفة من محبة أو كراهية، ليجعل الأمر في إطاره العلمي الموضوعي، بعيدًا عن العوامل النفسية، والجوانب الشخصية والعاطفية.

رابعًا: النسق الأكاديمي والخطاب الاقتصادي

يعد البعد الاقتصادي من أقدم الأبعاد المتصلة بالجماعة الاجتماعية، وأعمقها ظهورًا في الحياة بشكل عام، وقد مرّت النظم الاقتصادية بمراحل تطور سريعة وقوية، بدأت من الإنسان البدائي الذي يسعى بيديه في الأرض ليُحصّل لقمة عيشه، وصولاً إلى الصور الأعقد من قيام أنظمة تُسيّر البلاد والأمم بشكل رئيس، ولذلك مرّ هذا النظام بسلسلة من التغيرات، واختلف شكله باختلاف الحضارة والبيئة، ليقوم النظام الاقتصادي في النهاية على "تضام فعاليات ونشاطات السوق التجاري، والقيم المادية، ونظام الملكية، وعملية العرض والطلب بين التاجر والمستهلك، مكونة تنسيقًا منمطًا ومحددًا"[١].

ويظهر الخطاب الاقتصادي بتجلٍ واضح في بعض الأعمال الأدبية والفنية، ولابد من دراسة هذا الخطاب بتتبع نسق تشكله، بوصفه الانعكاس الطبيعي لما يدور في الواقع الحياتي، لأن "النظم الاقتصادية تظهر في كل المجتمعات، وهي تعمل حتى في أبسط المجتمعات الاقتصادية، ولكن كلما كان المجتمع مركبًا متقدمًا كان الاقتصاد أكثر تعقيدًا وتركيبًا، وتزداد قواعده صرامة وتعقيدًا"[٢].

ولا يمكن بحال فصل هذا الخطاب عن بقية الخطابات الأخرى في أي نصٍ أدبي، لأن هذه الأبعاد جميعها تشكل البناء الكلي للمجتمع، ولا يمكن فصل بعد على

١ - إرفنج زايتلن: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، ت (محمد عودة – إبراهيم عثمان)، منشورات ذات السلاسل، الكويت ١٩٨٩، ص٤٣.

٢ - مختار عبدالحكيم طلبة: مقدمة في المشكلة الاقتصادية – النظم الاقتصادية وبعض جوانب الاقتصاد الكلي، مطبعة مركز كلية القانون – جامعة القاهرة، القاهرة ٢٠٠٧، ص ص ٢٣ + ٢٤.

أرض الواقع عن بعد آخر، بل إن المجتمع مكون من هذه "النظم الاجتماعية الرئيسية (السياسية – العائلية – التربوية – الدينية – الاقتصادية)، ويعد التعاون والتناسق والعمل المتبادل بين هذه النظم الأساسية ضرورة حيوية، لاستمرار الحضارة والمجتمع، فكل منها تؤثر في النظم الأخرى وتتأثر بها بدرجات مختلفة"[١].

ولقد حاذر جلال أمين من أن يسيطر الخطاب الاقتصادي بالتحديد على الخطاب السير الذاتي لديه، فلم نجد حضور هذا الخطاب قويًا في طرحه، أو تجليه بارزًا في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، فليس حضوره في النص بنفس حضور الخطابين (الاجتماعي – الثقافي)، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أمرين، أولهما: كسر توقع القارئ الذي يتوقع كثيرًا من الطرح الاقتصادي في هذه السيرة، بوصف كاتبها أكاديميًا اقتصاديًا في المقام الأول، وله مؤلفات كثيرة في هذا الحقل العلمي المهم، فكان على جلال أمين أن يقلل من إطلالة هذا الخطاب، وتحجيم تأثيره في سيرته الذاتية بالتحديد، إذ كان على وعي تام بأنه لا يضع كتابًا علميًا أو مدرسيًا في الاقتصاد، فكان لا يسترسل، أو يترك المجال لهذا الخطاب ليأخذ مكانًا فسيحًا في سيرته، أو يظهر بشكل طاغٍ على خطابه السير ذاتي.

أما ثاني الأمرين: فهو رؤية جلال أمين لترتيب الأولويات التي يجب أن يبرزها في خطابه السير ذاتي، إذ المشكلة في اعتقاده ليست مشكلة اقتصاد، بل هي مشكلة اجتماعية وثقافية في المقام الأول، وكم من مرة عبر عن هذا الرأي، وأنه لا أمل في أي إصلاح اقتصادي ما دام هناك تبعية فكرية وثقافية "**إذا بي أشكو من التبعية الثقافية أكثر مما أشكو من التبعية الاقتصادية ... وكان هذا بداية لتزايد الجرعة الثقافية في كتاباتي على حساب الجرعة الاقتصادية، ولكن هذا لم يثر قلقي، إذ بدت المحافظة على الاستقلال الثقافي تكاد تكون مرادفة للمحافظة على الشخصية، بل وعلى البقاء، وبدت لي التنمية بالمعنى الاقتصادي الضيق أقل أهمية بكثير، وبدت مهمة إصلاح المعوج في الاقتصاد أسهل بكثير من مهمة إصلاح المعوج في الميدان الثقافي**"[٢]، كان الكاتب على

١ - مديحة عوني القصير، معن خليل عمر: المدخل إلى علم الاجتماع، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد ١٩٨١، ص٣٧٧.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٣١٢.

وعي إذاً بأثر الأنساق في كتاباته، وتبعًا لذلك كان يزيد من التحليلات الثقافية والاجتماعية، ويتعمق في الحديث عنها، في مقابل الحدّ من تأثير النسق الأكاديمي المُشكل لخطابه الاقتصادي، وهذا عين ما نجده في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، فنسبة حضور الخطابين الاجتماعي والثقافي تزيد كثيرًا عن حضور الخطاب الاقتصادي.

ومما يؤكد هذه الملاحظة السابقة – وهي ضعف حضور الخطاب الاقتصادي قليلاً في تشكيل الخطاب السير ذاتي لدى الكاتب، ما نراه منه في أكثر من موضع في السيرة وهو يبدي رأيه السلبي في علم الاقتصاد، وأنه فشل كعلم في وضع حلول جذرية للمشاكل الاقتصادية ، وأن علم الاقتصاد لا جدوى منه بشكل مفرد، بدون النظر إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية، تكرر هذا المعنى كثيرًا وبدأ شعوره هذا مبكرًا إبان بعثته للندن، للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه، حيث يقول: "**نعم قرأت بعض الكتب والمقالات البديعة في الاقتصاد خلال هذه الفترة، ولكن أكثر ما قرأته كان قليل الفائدة إلا من حيث تمكيني من الحصول على الشهادة المطلوبة، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت وكانت لي الحرية المطلقة في تحديد ما أقرأ وما لا أقرأ، دون دافع الحصول على شهادة في هذا العلم أو ذاك، لوضعت لنفسي برنامجًا مختلفًا تمامًا**"[١].

بالرغم من ذلك؛ فلقد بدأ النسق الأكاديمي في بث مفرداته وتشكيل الخطاب الاقتصادي في السيرة، ولكنها وكما سنلاحظ في عموم السيرة ستكون قيمًا سلبية كلها، نابعة من رؤية قاتمة لأهمية علم الاقتصاد، وأثره في تطور الأمم وازدهارها، في ظل تدهور باقي الأبعاد الاجتماعية والثقافية الأخرى، ولا يفتأ جلال أمين يكرر رؤيته هذه عن علم الاقتصاد مرة بعد أخرى، حتى أعلن اهتزاز ثقته في علم الاقتصاد "**وعلى أي حال خلال السنوات الست التي استغرقتها البعثة كانت ثقتي بالاقتصاد كعلم تضعف شيئًا فشيئًا، على الرغم من أني لم أغير رأيي الذي أتيت به من مصر، من أن الدوافع الاقتصادية تكاد تكون هي أهم عامل من العوامل المحركة للسلوك الإنساني**"[٢].

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٤.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ١٥٧ + ١٥٨.

وعضد جلال أمين رؤيته السوداوية لعلم الاقتصاد، وخيبة أمله فيه بسرده لقصة حدثت له مع أستاذ إنجليزي قبل انتهاء بعثته بوقت قليل، كان هذا الأستاذ (ريتشارد ليبسي) مرموقًا في علم الاقتصاد، وله مؤلفات شهيرة فيه، يقول جلال: "**وخلال المناقشة التي أعقبت المحاضرة سأله أحد الطلبة سؤالاً ظلت إجابته حاضرة في ذهني، وظللت أقتطفها من حين لآخر لتلامذتي، كان السؤال (إذا قُدر لك أن تعود إلى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، عندما كنت على وشك دخول الجامعة، فهل تختار علم الاقتصاد موضوعًا لتخصصك كما فعلت من قبل؟) وكانت الإجابة بالنفي، بل وبالنفي القاطع ... وتعجب الأستاذ من هذا العلم الذي يمكن لنظرياته أن تفسر لك الشيء ونقيضه، بنفس الدرجة من اليقين**"[١]، ومع خيبة أمل الكاتب في علم الاقتصاد، إلا أنه تخصص فيه، وألف فيه مؤلفات راقية، وهو ما جعل منه مفكرًا واقتصاديًا، ومثقفًا له مبادئ مستقلة، وآراء قويمة.

وبالرغم من نظرة الكاتب لعلم الاقتصاد كما بيّناها، إلا أن أثر النسق الأكاديمي كان حاضرًا بشكل يمكن تتبعه كذلك في السيرة الذاتية، وكان له أثره البيّن في تشكيل الخطاب الاقتصادي السير ذاتي وتكوينه، وقد يُعزى حضور الخطاب الاقتصادي – بالرغم من محاذرة المؤلف – إلى التخصص الأكاديمي، الذي فرض نفسه بشكل لا إرادي على الخطاب السير ذاتي وعلى الكاتب، وقد يرجع كذلك إلى ارتباط السياقات الاجتماعية والثقافية بعضها ببعض، بحيث إذا تناول الكاتب واحدًا منها فإنه بالضرورة سيتطرق إلى بقية السياقات، ولعل السببين معًا هما أساس حضور الخطاب الاقتصادي، وظهور تأثيره في الخطاب السير ذاتي عند جلال أمين.

ويمكن تلمس أثر هذا النسق الأكاديمي في مواضع متعددة في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، ولعل أول ظهور تمثل في المصطلحات الكثيرة التي يمكن للقارئ أن يراها مبثوثة في كل فصول السيرة، إذ نرى مصطلحات العلم ومفاهيمه (ادخار – تنمية – دخل – طبقات – الدوافع – العرض – الطلب – الاحصائيات – الوقف – البلدان النامية – العالم الثالث ... إلخ)، وسنرى أسماء كتب ومؤلفين كُثر في هذا العلم (مبادئ علم

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ١٥٨ + ١٥٩.

الاقتصاد – محاضرات في النظرية الاقتصادية – المخاطرة وعدم اليقين بالربح – النظرية النقدية ... إلخ)[1].

وكانت فرصة سانحة للكاتب ليبسط القول بأثر من النسق الأكاديمي في بعض قيم وقضايا علم الاقتصاد، من خلال فصل مستقل عنوانه (البعثة)، وتكلم جلال أمين في هذا الفصل عن تكوينه في علم الاقتصاد سواء ما اكتسبه من ثقافة اقتصادية، أو حصوله على درجتي الماجستير والدكتوراه، وكان في سرده يفصل القول في طرق التعليم في كلية الاقتصاد بجامعة لندن، وكيف يتعاملون هناك مع المبتعثين، كما كان يشير إلى أساتذته في علم الاقتصاد وأهم مؤلفاتهم، ومكانتهم العلمية، ذاكرًا ما يدين به لهم من فضل من وصوله إلى هذا القدر من الإلمام بالنظريات الاقتصادية، عارضًا فهمه الخاص لهذا العلم.[2]

ومن آثار النسق الأكاديمي كذلك في تشكيل الخطاب الاقتصادي السير ذاتي لدى الكاتب، تلك القضايا الاقتصادية التي يطرحها من حين لآخر في السيرة الذاتية، مُبديًا رأيه فيها بعد أن يقدم لها بنبذة تحتوي رأي الاقتصاديين أو السلطة، ثم يقدم رأيه أو فكرته في هذه القضية أو تلك، وليس من زائد القول التأكيد على أن البحث غير معني في الأساس بتتبع صحة هذه الأفكار أو خطئها، بقدر ما هو معني بتبين أثر هذا النسق وغيره من الأنساق في تشكيل الخطاب الكلي لسيرة جلال أمين الذاتية.

وتعد قضية الطبقات من القضايا التي طرحها الكاتب في سيرته كثيرًا، وتوقف أمامها في أكثر من موضع، فنرى اهتمامه المتزايد بالطبقة الوسطى في مصر، إذ كان يعد نفسه وعائلته الكبيرة ينتمون إليها. وقد أقام الكاتب مقارنة بين حال الطبقة المتوسطة في مصر قديمًا وحالها الآن، وكذلك أقام مقارنة بين الطبقة المتوسطة في منتصف القرن الماضي ومثيلاتها في دول أوروبا "**عندما أتذكر هذا النعيم الذي كانت تمرح فيه الطبقة الوسطى والطبقة العليا في مصر، في أشد أيام الحرب العالمية قسوة على الأوروبيين، أعود فأتعجب من درجة (التدليل) الذي تمتعت به الطبقة الميسورة في مصر على مرّ**

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٤٦ وما بعدها.
٢ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ فصل (البعثة) من أول ص١٤١ وما بعدها.

العصور، بالمقارنة بدرجة المعاناة التي تعرضت لها كافة الطبقات الاجتماعية في أوروبا بين فترة وأخرى، إما بسبب الحرب، أو بسبب الأزمات الاقتصادية الطاحنة"[١]. يكرر الكاتب هذه المقارنة أكثر من مرة، إما مقارنة داخلية بين حال الطبقة نفسها في القديم والحديث، أو مقارنة خارجية حين ينظر لحال الطبقات في المجتمعات الأخرى في نفس الفترة الزمنية.

وبيّن جلال أمين بأثر من النسق الأكاديمي، كيف أن الطبقة المتوسطة كانت تعيش حالة من الرفاهية – وذلك في أربعينيات القرن الماضي، وكيف كانت في أعلى درجات الاستمتاع نظرًا لارتفاع الدخل من ناحية، وانخفاض التكلفة من ناحية أخرى، كما أنه ينعي بشكل خفي حالها في وقتنا الحالي، وما آلت إليه من تدهور في أحوالها المعيشية؛ وذلك حين يستعرض بشكل ضافٍ أيام ازدهارها ويكرر هذا العرض كثيرًا، وينوه إلى تآكل هذه الطبقة المتوسطة في المجتمع المصري، وبداية تحوله الملحوظ إلى مجتمع ثنائي القطب، بين طبقة تعيش حالة الرفاهية حدّ الاتخام، وأخرى تعيش في عوز حدّ الإذلال والفقر. وسنرى تجليات النسق الأكاديمي واضحة في صفحات طوال، يحكي الكاتب في بعضها عن زوجته (جان) ومعاناتها أيام الحرب العالمية الثانية، بوصفها تمثل هي وعائلتها أسرة من الطبقة المتوسطة في دولة أوروبية.

يربط جلال أمين بين تغير وضع الطبقات في مصر وثورة يوليو، وكيف أن هذه الثورة قد قلبت حال المجتمع المصرية سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، فعندما يحكي عن ذهابه إلى مصيف (رأس البر) عام ١٩٥٧ بعد الثورة، يروعه التغيير – للأسوأ – الذي اكتنف المدينة التي سحرته في زياراته السابقة **"كان من الواضح أن الطبقة التي كانت تتمتع وحدها برأس البر منذ اثنتي عشر عامًا قد طردت شرّ طردة إلى مكان آخر، وحلّ محلها أعداد غفيرة من الناس ينتمون إلى طبقات شعبية ... عدتّ كسير الخاطر إلى القاهرة"**[٢]، إن تناول الكاتب للطبقة المتوسطة يشوبه بشكل عام الكثير من التحسر على ذهاب عيشهم الرغيد، وبوصفه متخصصًا في الاقتصاد نبّه مرارًا خلال سيرته على خطورة اندثار هذه الطبقة واضمحلال وجودها في مجتمعنا.

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٩٢.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٩٣.

ودفعه حرصه على هذه الطبقة أن يُفصل القول في بيان قدرتها الشرائية بين الماضي والحاضر، موضحًا كيف كانت تملك القدرة على شراء الأجهزة الكهربائية جميعها، حتى الراديو والجراموفون، وكانت كذلك تستطيع توفير مبالغ كبيرة للاستمتاع برفاهيات الحياة، مثل الملابس الأنيقة والمصايف والرحلات، ليطرح جلال أمين سؤالاً مضمرًا بالغ الأهمية: هل توجد طبقة وسطى بهذا الحال في مصر الآن؟ وهل تستطيع الطبقات الوسطى في وقتنا الراهن أن تقف على قدم المساواة مع مثيلاتها في النصف الأول من القرن العشرين.

ومن القضايا التي أبدى الكاتب رأيه فيها، وجاء هذا الرأي ضمن نسق أكاديمي يُوجه الكاتب في آرائه الاقتصادية، قضية الوقف الخيري في مصر، فقد جهر الكاتب أنه ضد إلغائه، ففي معرض حديثه عن أساتذة الشريعة الذين درسوا له في كلية الحقوق، تكلم عن الشيخ (عبدالوهاب خلاف)، فقال: "**كان المقرر الذي يحاضرنا فيه نظام الوقف قد فقد الكثير من أهميته بسبب قيام الثورة بإلغاء الوقف الأهلي، وكنت وقتها أصغر من أن أدرك خطأ هذا الإلغاء، وأن هذا النظام كان من الممكن لو أحسن تطبيقه أن يساهم بدور فعال في التنمية والنهوض بمستوى التعليم والصحة ومختلف المرافق لاجتماعية**"[1]، كان هذا هو أسلوب الكاتب في عرض رأيه في بعض القضايا الاقتصادية، فهو يورد القضية متبوعة برأيه الذي كوّنه فيما بعد، حيث اكتملت ثقافته الاقتصادية والفكرية، واطلع على معارف وعلوم متنوعة؛ ليؤهله كل ذلك إلى طرح رأيه في قضايا كثيرة.

وليس ببعيد عن القضية السابقة؛ تناوله لقضية بيع الحكومة لشركات القطاع العام، فقد رفض هذه الخطوة رفضًا تامًا، جاء ذلك حين كان يتحدث عن زملائه في كلية الحقوق بجامعة عين شمس (سعيد النجار)، وأخذ يعرض بعض آرائه الاقتصادية، وكان الدكتور سعيد من المؤيدين لبيع هذه الشركات، على العكس من الكاتب "**وتكرر اشتراكه في الندوات التي كثر عرضها تحت شعار (الإصلاح الاقتصادي في مصر)، وكانت تدور في الأساس حول بيع القطاع العام وكان هذا البيع في نظري خطأ لا يغتفر، من الممكن**

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١١٢.

أن تكون رأسمالي النزعة ولا يكون هناك غبار على ذلك، ولكني كنت أعتبر بيع القطاع العام شيئًا مختلفًا عن مجرد تفضيل القطاع الخاص، فلتشجع الرأسماليين الوطنيين ما تشاء، ولتفضل قيام هؤلاء بالاستثمارات على قيام الحكومة بها، ولكن أن تبيع مشروعات عامة ناجحة، بل ولا تجد غضاضة في بيعها لأجانب يسيل لعابهم على ما يمكن تحقيقه من ورائها من أرباح"[١].

كان جلال أمين يشعر بأسى كبير وهو يتكلم في هذه القضية، طارحًا رأيه الاقتصادي؛ الممزوج بنكهة سياسية، ومقدمًا النصح لأولي الأمر بأن يعيدوا النظر في عملية البيع، وأن يحاولوا قدر الإمكان إصلاح الخلل في هذه المؤسسات دون خسارتها بالكامل، لقد أثبت جلال أمين آراءه الاقتصادية في قضايا متنوعة خلال سيرته (ماذا علمتني الحياة؟)، في ظهور متوسط لأثر النسق الأكاديمي في صياغة وتشكيل خطابه الاقتصادي السير ذاتي.

ويوجد ملمح آخر كان للنسق الأكاديمي بالغ الأثر في ظهوره في سيرة جلال أمين الذاتية، هو استعراضه المفصل لأساتذة الاقتصاد المصريين والأجانب الذين احتك بهم؛ أو عرفهم طالبًا وأستاذًا، وقد أخذ هذا العرض منحى واحدًا طوال السيرة الذاتية، حيث يبدأ في تعريف الشخصية وكيف تعرف بها، موضحًا نوع العلاقة التي تربطه بهذه الشخصية، ثم يثني ذلك بذكر مجمل آرائه الاقتصادية ورؤيته للإصلاح أو النهوض، وذكر دوره السياسي وسعيه لتنفيذ رؤيته إن كان قد تقلد منصبًا حكوميًا أو وزاريًا، غير أن ما يهمنا أن الكاتب كان يعرض بالتفصيل الآراء الاقتصادية للشخصية، من ذلك حكايته عن الدكتور (سعيد النجار) فيقول: **"كان أكثر استعدادًا لإدخال الإجراءات الإصلاحية والتغيير، ولكنه كان يؤمن إيمانًا لا يداخله شك بالنظام الفردي والحرية الاقتصادية، وكان يعتقد اعتقادًا جازمًا بصحة رأي آدم سميث في أن المصلحة الفردية تتفق دائمًا مع مصلحة المجتمع إلا باستثناءات بسيطة للغاية، فالأفضل إذن أن يبقى التدخل الحكومي عند الحدّ الأدنى"**[٢]، وقل مثل هذا التفصيل فيما يخص شخصيات أخرى، مثل (حسين خلاف – زكي الشافعي – لبيب شقير – رفعت المحجوب).

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ١٢٥ + ١٢٦.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١١٣.

ويتجلى أثر النسق الأكاديمي في تناول آراء الشخصيات بشكل ذكي ولبيب، حيث لا نجد طرحًا مباشرًا لأفكار الكاتب وآرائه الاقتصادية في عموم السيرة الذاتية، بقدر ما نجد ذلك الطرح مقترنًا بآراء الآخرين، تعقيبًا عليها، ومناقشة لها بين قبولٍ ورفض، فقد يبدي ميلاً وقبولاً لكامل الشخصية وما تتبناه من أفكار وأطروحات، مثل ما فعله مع (لبيب شقير)، وقد ينفر من الشخصية وما تمثله من مبادئ وأفكار، سواء اقتصادية أو سياسية، ولا يتفق مع هذه الشخصية وأطروحاتها، كما فعل مع (رفعت المحجوب)، وبذا فإن النسق الأكاديمي يعلن تأثيره في تشكيل خطاب جلال أمين الاقتصادي السير ذاتي بشكل ذكي، وخفي، عندما أجاد الكاتب عرض رؤاه الاقتصادية، وجعلها مبثوثة بشكل طبيعي لا ينفر القارئ منها؛ ولا يمل من جفاف طرحها.

ولن نعدم الظهور الكامل للنسق الأكاديمي في بعض المواضع من السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، إذ نرى في بعض الصفحات سردًا كاملاً يتناول في مجمله رؤية اقتصادية صافية، أو فكرة يتبناها الكاتب فيعرضها بشكل مستقل، وظهر هذا أكثر في فصلي (البعثة – البدايات والنهايات)، وذلك لأن فصل البعثة هو الأنسب لعرض رسالتي الماجستير والدكتوراه، المتخصصتين في علم الاقتصاد، فكان من الطبيعي أن يفرد صفحات كاملة لعرض فكرة رسالته الأولى والثانية، مثل ما نراه حين تناول نظرية الدخل وتوزيعه، ونظرية الربح، وأسباب انقسام المجتمع إلى طبقات [١].

أما الفصل الأخير (البدايات والنهايات) فنرى فيه صفحات يبسط الكاتب من خلالها نظرته لعلم الاقتصاد، وكيفية إصلاح بعض المشاكل الاقتصادية، وجاء هذا الطرح مناسبًا في سياقه وموضعه، بوصفه يركز في الفصل الأخير على أهم الرسائل التي يريد لها أن تستقر في ذهن المتلقي مع نهاية سيرته الذاتية، ودفعه ذلك إلى إجمال حال الاقتصاد المصري، بدءًا من مرحلة الانطلاق الاقتصادي حتى الآن، ومظاهر الضعف الاقتصادي في المجتمع المصري في عهد السادات ومبارك من بعده.[٢]

١ - انظر: ماذا علمتني الحياة؟ ص١٥١ وما بعدها.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص ص ٣٦٢ + ٣٦٣.

وقد عقد جلال أمين بأثر من النسق الأكاديمي – أكثر من مرة – مقارنة بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي (الشيوعي)، فيما يخص الجانب الاقتصادي، وتوسع في المقارنة وهو يحكي عن زيارته لبرلين بشقيها الغربي والشرقي[١]، وبشكل عام فإن الخطاب الاقتصادي يظهر بشكل مختلف عن الخطابين الاجتماعي والثقافي، فهو أقل تجليًا وظهورًا منهما، وكان الكاتب على وعي بهذا الاختلاف، ويدعمه، مع توجيهه – من خلال النسق الأكاديمي – رسائل محددة لمن يرغب في الإصلاح.

خامسًا: الدلالات النسقية للمكون اللغوي

يعد المكون اللغوي عنصرًا فاعلاً في بناء الخطاب السير ذاتي عند جلال أمين، وملمحًا بارزًا يسهم في تشكيل العلاقة بين سائر الأنساق المكونة للعمل الأدبي، ويستمد المكون اللغوي هذه الأهمية بوصفه "المادة الخام التي يتشكل منها العمل الأدبي بعامة، لأن اللغة لا تتوقف عند فصاحية الخطاب مقدمة له مرآة لبيئته الخاصة، بل هي التي تشكل سماته الخاصة، وتولد قيمته الفنية والجمالية"[٢]، والكاتب البارع هو الذي يمتلك ناصية اللغة، ويحسن توظيف مفرداتها وتراكيبها توظيفًا دلاليًا ساميًا، ويستثمرها في سياقات تواصلية وتداولية حاملة لدلالات معينة؛ يريد لها الوصول إلى عقل المتلقي وقلبه.

ليصبح المكون اللغوي بالمفهوم السابق؛ حاملاً لدلالة هذا النسق أو ذاك في الخطاب الأدبي لأنه "القالب الذي يحمل إلى المتلقي الفكرة أو العاطفة أو الجمال، الحامل لرؤية الكاتب الإنسانية، وهو القادر على جعل الماضي واقعًا معيشًا، كما أنه يمتد إلى بالحاضر إلى رؤية مستقبلية مشحونة بالتوقعات"[٣].

ومن هنا فإن تتبع الأنماط اللغوية المشكلة لخطاب السيرة الذاتية عند جلال أمين؛ هو في الحقيقة بحث في "الطبيعة الإنسانية، لأن اللغة تشكل البعد الأنطولوجي للإنسان، فهي التي تحدد هويته وتجلبه إلى حالة الحضور، بل هي مشيئة في اصطياد العالم، ولا

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٦٢.

٢ - رولان بارت: التحليل البنيوي للسرد، ت (حسن بحراوي وآخرون)، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط ١٩٩٢، ص١٢.

٣ - عبدالله إبراهيم: المتخيل السردي – مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ١٩٩٠، ص١١٧.

يمكن أن نتحدث عن عالم إلا بالنسبة لكائن يقوم باللغة"[١]، ومن جهة أخرى يوضح البناء اللغوي مدى اتساع تفكير الكاتب، ودرجة وعيه، وما ذلك إلا لدلالة هذا النسيج اللغوي على "قوة التفكير، وقوة الوعي بأشياء موجودة فعلاً، وإدراك أشياء وحالات لا توجد أيضًا"[٢].

ولاستجلاء الدلالة النسقية للبناء اللغوي في الخطاب السير ذاتي عند جلال أمين؛ سنتوقف أمام ثلاث نقاط في محاولة لفهم المرجعية الثقافية المؤثرة في لغة كتاب (ماذا علمتني الحياة؟)، وكيف تبلور هذا المكون على امتداد السيرة الذاتية، عبر إقامة أنماط لغوية معينة متكررة، أو صبغت عملية السرد والحكي بصبغة معينة.

١. الصيغ التعبيرية وانعدام التورية

واصل الكاتب تأثره بنسق الكشف والوضوح (التصريحي)، حين سيطرت الصيغ التعبيرية المباشرة على عملية السرد، فجاءت الحكاية في الكتاب عبر ضمير المتكلم (الأنا)، وليس هذا بغريب على عمل أدبي يصنف تحت جنس أدب السيرة الذاتية، إذ تكون عملية الحكاية فيه راجعة إلى الذات الحاكية، في عملية توحد بين السارد والراوي، ولن نبعد كثيرًا حين نقرر أن معظم صفحات السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) كانت قائمة على ضمير المتكلم في عملية السرد.

ولكننا نجد الكاتب في بعض الأحيان – القليلة جدًا – يعمد إلى الحكاية عبر ضمير الجمع للمتكلم (نحن)، وكان هذا مختصًا ببعض الذكريات أو القصص والحكايات عن طفولته ونشأته أو حين يحكي عن أخوته، وما يجمعه معهم من ذكريات وحكايات مشتركة، وعلى أية حال لم ترد عملية السرد بهذا الضمير إلا في مواضع قليلة، يقول: "**كنا نستيقظ ليلاً مذعورين إذ نجدها قد قامت من نومها تصيح وتنتحب؛ إثر كابوس يدور حول فراقها القريب لابنها، ويحاول أبي تهدئتها**"[٣]، ونراه حتى في حكاياته الطويلة عن أبيه وأمه وأخوته يتمسك بالرابط اللغوي من خلال ياء النسب؛ فلا يقول إلا (أبي – أمي

١ - مارتن هايدغر: اللغة أخطر النعم – ضمن كتاب (نصوص مختارة)، ت (محمد سبيلا – عبد السلام بنعبد العالي)، ط١، سلسلة دفاتر فلسفية، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٤، ص١٦.
٢ - حكيم راضي: اللغة وحدودها، مجلة الأقلام، ٥ع، وزارة الثقافة والإعلام – بغداد، مايو ١٩٨٤، ص٣٠.
٣ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٥٢.

– أخوتي / كنت وأخوتي)، وبذلك فإن عملية السرد تكاد تلتزم صيغة واحدة في كتاب (ماذا علمتني الحياة؟)، وهي الحكاية عبر ضمير المتكلم.

ونجد كذلك في اللغة السردية تغليب الأفعال الماضية والمضارعة التي ينسب الفاعلية فيها لنفسه، في تأكيد مستتر على وقوع هذه الحوادث أو الوقائع منه أو له، وأنه عاش هذه الأوقات جميعها بما فيها من ذكريات يجترها، ومن ثم فإن المصداقية تتسلل إلى قلب المتلقي، وسنرى جملة كبيرة من الأفعال المتصلة بتاء الفاعل مثل: (تذكرت – قرأت – كتبت – شرعت – حاولت – أستضيء – أخطأت ... إلخ)، بل إن أول كلمة افتتح بها السيرة على الاطلاق كانت فعلاً مضارعًا متصلاً بتاء الفاعل (بدأت).

كما أن الكاتب أوضح في المقدمة منهجه في كتابة هذه السيرة الذاتية، وعبر عن هذه المنهجية بضمير المتكلم (الأنا) كذلك، إذ يقول: "**كنت أتردد أحيانًا بين الإبقاء على فقرة وحذفها، إذا تصورت أن النقد يمكن أن يكون مؤلمًا، ولكني لم أتردد قط إزاء النقد الذي وجهته لشخصية عامة، بل أبقيت على النقد على اعتبار أن النفع المتوقع يبرر ذلك**"[١]، واستمر الكاتب في بيان منهجه في تدوين هذه السيرة الذاتية، وأسباب إثباته لبعض الأشياء وحذفه البعض الآخر، وغير ذلك من معايير وضوابط اعتمدها في سيرته، وكان كل ذلك عبر سلسلة من الأفعال التي تتصل بتاء الفاعل؛ أو ضمير المتكلم، ليؤكد على المسؤولية التي يتحملها، بوصفه كاتب هذه السيرة، ومسؤول عن كل ما ورد فيها من أحداث وأفكار ووقائع، الأمر الذي يزيد من حجم الثقة بينه وبين المتلقي.

وقد نوه الكاتب نفسه إلى نفوره من عملية التورية، ففضل استخدام ضمير المتكلم في عملية السرد، عبر ضمير (الأنا) في تسجيل هذه السيرة الذاتية، لأنه ينفر من التحدث بصيغة الغائب؛ وكان هذا التنويه في مقدمة السيرة حين كان يبين منهجه في الكتابة، والضوابط التي سيلزم نفسه بها في عملية السرد، يقول: "**وجدت بعض كتاب السيرة الذاتية يفضلون الإشارة إلى أنفسهم بصيغة الغائب، فبدلاً من أن يكتبوا قلت وفعلت؛ يقولون قال صاحبنا أو قال الفتى كذا أو فعل كذا، ولم أستسغ هذه الصيغة قط في القراءة، فلم يخطر ببالي قط أن أستخدمها في الكتابة، وإذا كان البعض يرى في هذه الصياغة**

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٠.

تواضعًا، فإني أرى فيها عكس ذلك؛ بل إنها تمكن الكاتب من كيل الثناء لنفسه، ونسبة الفضل إليها بأكثر مما تمكنه الإشارة المباشرة إلى نفسه دون التواء"[1].

وبجانب التفسير الذي قدمه جلال أمين ليبرر عزوفه عن ضمير الغائب؛ ورغبته في الحكاية من خلال ضمير المتكلم، هناك دلالة نسقية أخرى توضح سبب اختيار الكاتب لضمير المتكلم دون غيره من الضمائر – وكانت سببًا في حالة المباشرة، والصيغ التعبيرية الراجعة للذات – وهي درجة الوعي والثبات الفكري الذي عليه الكاتب في حياته وما فيها من وقائع وأحداث، إذ يتبدى لنا أنه لم يصدر عن قول أو فعل، أو رأي في حياته إلا بعد تمحيص دقيق، وتفكير طويل، لتنطلق مواقفه وآراؤه بعد ذلك من إيمان عميق وفكر متروٍ، وتأمل دقيق، لذلك فإنه لا يخجل أبدًا – ولو على مستوى لغة السرد – من أن ينسب هذه الأفعال والأفكار، والسلوكيات إلى نفسه عبر ضمير المتكلم.

٢. الجمل الثقافية بين المباشرة والتصوير

كان الطابع العام الغالب على عموم الجمل الثقافية في سيرة جلال أمين الذاتية؛ هيمنة اللغة المباشرة، في مقابل قلة – أو ندرة – اللغة التجسيدية أو التصويرية، إذ نستطيع أن نعدد تلك المواضع التي أتت فيها اللغة على شكل تصوير أو تجسيد، فمن تلك المواضع ما يحكيه عن حرص أمه فيما يتعلق بالمال، فيقول: **"كان حصول أحد منا على بضعة قروش من أمي أشبه بمحاولة استخراج الماء من الصخر"**[2]، أو ذلك الموضع الذي ورد في صفحتي (١٨ – ١٩) ويحكي فيه عن قصة فيلم بولندي صامت، يصور رجلين يحملان فوق ظهريهما دولابًا كبيرًا يعيق تحركهما في كل شيء، ويمنعهما من التقدم ولا يستطيعان التخلص منع في الوقت ذاته، كانت هذه الصورة التجسيدية هي وسيلته في إقناع القارئ بأنه – أي الكاتب – قد تخلص من كل قناعاته المسبقة قبل أن يخط حرفًا واحدًا في هذه السيرة؛ ضمانًا لحياديتها ومصداقيتها.

ومثل ما نرى كذلك في صفحة (٢٠٧) حين وصف حكم السادات ثم قارنه بنظام مبارك، من خلال جملٍ ثقافية ذات دلالات موحية، فعبر عن طريقة الحكم بطريقة أسماها

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٨.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٢٦.

(الصدمات الكهربائية)، وقال بأن هذه الطريقة هي التي كان يتبعها نظام عبد الناصر ونظام السادات، عكس النهج الذي يسير عليه مبارك؛ الذي كان يُمضي ما يريد من سياسات بطريقة اللين والتدرج غير الملحوظ. وكذلك من المواضع التي يمكن أن تندرج تحت أسلوب السرد التجسيدي، ما أثبته من أشعار (طاغور) أو قام بترجمتها، وكررها مرتين في سيرته الذاتية، وبشكل عام يمكن للقارئ أن يحصي المواضع التي أتت فيها الجمل الثقافية على شكل تصويري، في مقابل شيوع المستوى المباشر للغة في التعبير وإيصال الدلالات.

بينما نجد المستوى التعبيري المباشر للجمل الثقافية مهيمنًا على التشكيل اللغوي لكتاب "ماذا علمتني الحياة؟"، وذلك في سرده للحكايات والأحداث، وتحليل الشخصيات ووصفهم، وتقديم الأفكار وطرح الرؤى، فكان جلال أمين يبتعد قدر الإمكان عن التحليق في عالم الخيال بواسطة اللغة، أو أن يأتي بكلمة تحمل دلالات تكثيفية عالية أو لها أكثر من معنى، كانت أغلب سياقاته ذات معانٍ واضحة قد تقترب من الجفاف التصويري، سنرى ذلك في حكاياته عن نشأته وطفولته، وعن بيته وعائلته، وعن عمله وأسفاره، فها هو ذا يصف أخاه (محمد) فيقول: "**كان طويل القامة ذو وسامة واضحة، إذ زال تمامًا ذلك الخطر الذي كان يقلق أبي وهو كبر حجم أنفه، كما لم يتحقق قط ما كان يقلق أبي عليه من وراثة قصر نظره، فقد تمتع محمد بقوة الإبصار ولم يحتج إلى نظارة طوال حياته، شديد الاعتزاز بكرامته، عنيف في غضبه، قليل التسامح**"[١].

كان هذا هو ديدن الكاتب في جمله المُشكلة لبنائه اللغوي، حين يحكي، أو يحلل شخصية ما من شخصيات أخوته أو أساتذته وزملائه، أو حتى شخصية سياسية أو معروفة، وتزداد اللغة تجريدية ومباشرة حين يتعلق الأمر بإبداء رأيه في قضية ما، إذ تتجلى المباشرة في أعلى صورها، ويستعين بالمصطلحات العلمية، ويقدم الحجج العقلية إن احتاج إليها، ولا يتخلى عن هذه اللغة المباشرة حتى وهو يعبر عن حزنه وانكساره بعد هزيمة ١٩٦٧، يقول: "**هل كان إذن كل هذا الكلام الذي ظللنا نسمعه خلال السنوات العشر السابقة عن بناء جيش قوي، وعن كل هذه الصواريخ التي سمي بعضها القاهر**

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٤٩.

والظافر، وعن قدرتنا على استعادة حقوق الفلسطينيين ... إلخ، هل كان هذا الكلام كله كذبًا وتمويهًا؟ ولماذا إذن كان كل هذا التقييد للحريات والتدخل في حياة الناس اليومية؟ هل كان هذا لصالح النظام وليس لصالح القضايا الوطنية؟"[1].

إن شيوع التعبير بالمستوى اللغوي المباشر أو التجريدي في هذه السيرة الذاتية؛ وبناء الجمل الثقافية على مستوى من الوضوح والمباشرة يرجع في سببه إلى نسقين اكتنفا حياة الكاتب – أو معظمها، أولهما: طبيعة العمل الذي استغرق معظم حياة الكاتب، ونعني به العمل الأكاديمي، الذي تخصص بموجبه الكاتب في علم الاقتصاد، وتدريسه لمقرراته ردحًا طويلاً من الزمن، وتأليفه مراجع مهمة فيه كذلك، كان هذا العامل ذا أثر مهم في صبغ كتابات جلال أمين بصبغة المباشرة والوضوح، لتصبح كتاباته محددة لا لبس فيها، ولا تحتمل تعدد المعاني، نظرًا للطبيعة الحساسة التي تربط بين علم الاقتصاد وواقع الناس وحياتهم بشكل مباشر وخطير، وكذلك لما يربط علم الاقتصاد بالسياسة وإدارة الدول واقتصادها.

أما النسق الثاني فهو إيمان الكاتب الشديد والقوي بأفكاره وآرائه، واعتزازه بمواقفه ومبادئه، ودفعه ذلك إلى تبني لغة واضحة وصريحة، ومحددة، تخلو من الخيال أو التصوير، وتبتعد قدر الإمكان عن التجسيد الفني، لتنطلق آراؤه وتحليلاته من منطلق نفسي وعقدي واضح، مما ينعكس على لغة الكتابة لديه، فتتشكل على المستوى التجريدي المباشر.

٣. النسق المعرفي والقاموس اللغوي

تشكّل البناء اللغوي في خطاب جلال أمين السير ذاتي عبر قاموس لغوي تميز به، وعُرفت به كتابته وأسلوبه، ونتج ذلك القاموس اللغوي من خلال نسق معرفي شيدته علاقته الخاصة باللغة الإنجليزية، فلا عجب من تأثير هذه اللغة الأجنبية على نسيجه اللغوي بأكمله، وظهور ذلك الأثر بشكل متكرر وملحوظ في عموم السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، فقد قضى الكاتب ست سنوات مبتعثًا إلى لندن ليحصل على الدرجات العلمية

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٩٥.

العليا، ثم قضى عامًا في لوس أنجلوس بأمريكا، ثم مكث سنين كثيرة يدرّس باللغة الإنجليزية مقررات علم الاقتصاد في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، بالإضافة إلى أن تمكنه التام من هذه اللغة الأجنبية قد أهّله ليقوم بوضع كتب ومراجع بها، وكذلك ترجمة أعمال عديدة منها إلى لغته الأم (العربية).

والحال كذلك؛ سنرى أثر هذا النسق المعرفي في أمرين يميزان القاموس اللغوي في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، أولهما: كثرة الأسماء والمصطلحات الأكاديمية التي وردت في متن السيرة الذاتية، إذ لا تكاد تمرّ صفحة واحدة دون أن نرى فيها اسما، إما لصديق أو زميل، أو أخ أو أخت، أو أستاذ أو عالم، أو سياسي مشهور أو أديب مفلق، وتنوعت هذه الأسماء لتضم ثقافات متنوعة؛ من عرب وإنجليز وأمريكيين، وهنود وروس؛ ويابانيين. كما سنطالع المصطلحات الأكاديمية كذلك؛ وهي كثيرة جدًا في السيرة الذاتية، وأكثرها ورودًا المصطلحات الاجتماعية تليها الاقتصادية ثم الثقافية والسياسية.

ولكن الأمر الملاحظ هو عدم ذكر الكاتب لأي اسم أو مكان معين الاسم إبان حكايته عن فترة وجوده بالكويت، إذ لم يذكر مثلاً اسم رئيسه في العمل، أو أحدًا ممن عمل معهم هناك، أو وصف مسكنه هناك، بل كان كلامه عن تلك الفترة محض تأمل وتحليل لتلك السنوات الربع، مقدمًا رؤيته الراصدة عن طبيعة الحياة الاجتماعي في الكويت، ومبينًا خلاصة تفكيره في تلك المجتمعات التي يراها متكلفة وغير طبيعية، ويدل هذا التجاهل التام من قِبل المؤلف على سيادة نسق التجاهل، فهو لا يرغب في تذكر تفاصيل هذه الفترة من عمره، نظرًا لما تركته من أثر سلبي في نمط معيشته وتفكيره، إذ لم يكن راضيًا كل الرضا عن هذه الفترة من تاريخ حياته، لذلك لم نجد اسمًا واحدًا يخص أحدًا من الكويت أو شيئًا بها في القاموس اللغوي المُشكل لسيرته الذاتية.

الأمر الثاني الذي ميّز القاموس اللغوي في طول السيرة الذاتية وعرضها بأثر من النسق المعرفي، تلك الترجمة التي نراها لعدة نصوص في السيرة الذاتية أو لبعض المصطلحات والأسماء، فقد أثبت ترجمة لعدة نصوص في متن السيرة الذاتية، إما لأنها منقولة أساسًا عن اللغة الإنجليزية وما العربية إلا ترجمة فأثبت النصين لذلك السبب، وإما أنها لغة غير عربية وغير إنجليزية أيضًا؛ فأورد النص العربي ثم أتبعه بالنص الإنجليزي.

ونرى مثل هذا في ترجمته لمقطوعة شعرية لطاغور إلى الإنجليزية بعد النص العربي لها "**لقد أنفقت ثروة طائلة في السفر إلى شواطئ بعيدة، فرأيت جبالاً شاهقة ومحيطات لا يحدّها حدّ، ولكني لم أجد متسعًا من الوقت لأن أخطو خطوات خارج منزلي لأنظر إلى قطرة واحدة من الندى، على ورقة واحدة من أوراق العشب**"[١]، ومثل ترجمته لمقولة أستاذه له؛ حين قال: "**إنني لم أحول الطين إلى كريستال**"[٢]، وكذلك مقولة نفس الأستاذ أيضًا "**كيف تقفز في القراءة**"، وكذلك ترجمته للمثل الإنجليزي "**الفهم معناه الصفح**"[٣].

ونراه يورد ترجمة كثيرة إما لأسماء أساتذة له أو زملاء أو علماء مرموقين، أو أسماء أدباء عالميين، أو أسماء مراجع أو مصطلحات أو أسماء لمناطق وأماكن مختلفة، فيورد الاسم بالعربية متبوعًا بترجمته إلى الإنجليزية، وقد أحصى الباحث (٥٣) ترجمة لاسم أو مصطلح أو غير ذلك، ودلالة هذا الرقم قوية – إذ وردت هذه الترجمات في سيرة ذاتية واحدة (ماذا علمتني الحياة؟) – على تأثير النسق المعرفي بما فيه من الاحتكاك الحضاري، والبناء الثقافي في تشكيل القاموس اللغوي الخاص بالكاتب، وذلك باتجاه علاقته الوثيقة باللغة الإنجليزية؛ فإن تمكنه منها؛ وتدريسه بها؛ وتأليفه بعض كتبه بها؛ كل ذلك قد ترك أثرًا بالغ الوضوح في قاموسه اللغوي الذي شكّل سيرته الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟).

خاتمة

أظهرت دراسة الأنساق الثقافية في سيرة جلال أمين الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟)، مجموع السياقات التي شكلت خطابه السير ذاتي؛ مع بيان التأثير القوي لهذه الأنساق في أبعاد الخطاب اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا ولغويًا، وثقافيًا، كما بينت القراءة الثقافية تشبُع هذه السيرة – من خلال تلك السياقات – بمخزونٍ دلاليٍ عميق وثري؛ يرجع في تأصيله وغناه إلى اتساع ثقافة الكاتب، وقابلية المتلقي لمتابعة تجربته الغنية، ورؤاه الدقيقة.

١ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٨٤.
٢ - ماذا علمتني الحياة؟: ص١٤٤.
٣ - ماذا علمتني الحياة؟: ص٣٣٤.

وقد انتهت الدراسة إلى بعض النتائج:

. كانت القراءة الثقافية هي المنهج الملائم لتفكيك المضمرات النسقية لهذه السيرة الذاتية، متتبعة- من خلال تضاريس النص – آليات تفاعلها لتصل إلى فهم طبيعة التشكيل الذي جاء عليه خطاب جلال أمين السير ذاتي، وقيام بنية منفتحة أمام كل التأويلات، ومُهشمة لتوقعات القارئ في الوقت ذاته.

. نرى نسق الرصد والتأمل هو النسق الأكثر تجليًا ووضوحًا؛ حين ترك أثرًا وبصمة مميزين في تشكيل الرؤية الاجتماعية في خطاب السيرة الذاتية لدى جلال أمين، حين استطاع بحرفية رصد التغيير الحادث في المجتمع المصري – وغيره – خلال أكثر نصف قرن من الزمان، وتتبع أنماط هذا التغيير عبر كثيرٍ من التأمل والتحليل.

. أزاح النسق المعرفي اللثام عن كثير من الرؤى الثقافية التي أثبتها المؤلف بوحي من هذا النسق، واكتسب هذا النسق ثراءً واضحًا نتيجة سفر الكاتب الدائم إلى مجتمعات متعددة، واحتكاكه بثقافات وأنماط حضارية مختلفة عن وطنه الأم، بالإضافة لتكوينه الثقافي العميق؛ مما كان له أثره المباشر – من خلال النسق المعرفي – في تشكيل الخطاب الثقافي في سيرته الذاتية.

. اتسم الخطاب السياسي بالحذر في سيرة جلال أمين الذاتية، وذلك بسبب طبيعته الشخصية التي لا تميل إلى الكلام المباشر في الأمور السياسية، أو ممارستها على أرض الواقع، ومع ذلك فقد ظهر أثر النسق التصريحي بشكل واضح حين شكّل الخطاب السياسي فيما يخص مرحلة حكم عبد الناصر، وفترة حكم السادات كذلك، وبرز النسق التلميحي فيما يخص الحديث عن فترة حكم مبارك، مما يجعل من النسق التصريحي ذي طبيعة توثيقية بشكل كبير.

. امتاز النسق الأكاديمي بتأثيره القوي في قاموس السيرة الذاتية اللغوي الاقتصادي، حيث وردت مجموعة كبيرة من المصطلحات والمفاهيم الاقتصادية، وكذلك مناقشة العديد من القضايا ذات المرجعية الاقتصادية، مع ملاحظة أن الكاتب كان يقصر نفسه عن التوسع في هذا الناحية بالتحديد، فلم يترك مجالاً للخطاب الاقتصادي ليأخذ مساحة أرحب في تشكيل سيرته، لكيلا يمل القارئ أو ينفر من القضايا العلمية أو الاقتصادية.

. ظهر أثر الأنساق في بناء الجمل الثقافية في خطاب السيرة الذاتية، فاتسم البناء اللغوي بعدة أمور: حيث سيطرت الصيغة التعبيرية بضمير المتكلم (الأنا) على عملية الحكاية مع ندرة (أو انعدام) عملية التورية من خلال ضمائر أخرى، وغلب على صياغة الجمل الثقافية المستوى اللغوي المباشر وقلة المستوى التجسيدي التصويري، كما ظهر أثر النسق المعرفي، والبناء الثقافي بوضوح على قاموسه اللغوي، من خلال ترجمته لكثير من المصطلحات والأسماء وعناوين الكتب.

لقد تضافرت الأنساق الثقافية في السيرة الذاتية (ماذا علمتني الحياة؟) لتُشكل بناءً مميزًا للنص، وتفتح الباب واسعًا أمام التأويل من قِبل المتلقي، حين نرى المؤلف قد استطاع باقتدار أن يرصد حياة كاملة على المستوى الشخصي والاجتماعي، ويرسم خريطة ذهنية شاملة للمجتمعات التي احتك بها، ليتميز عموم الخطاب السير ذاتي عند جلال أمين بحساسية تسجل كافة المتغيرات على أصعدة كثيرة، وبينت القراءة الثقافية كيفية تفاعل هذه الأنساق وتضامها لتقيم جدلية تشيد هذا الخطاب السير ذاتي، وظهرت آثار هذه الأنساق في صورة علامات وعلاقات متعددة، اتخذت من النص وسيلة جمالية لتصل إلى المتلقي في النهاية.

المصادر والمراجع

أ . المصادر

- جلال أمين: رحيق العمر، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٠.
- ـــــ: ماذا علمتني الحياة؟، ط١، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٧.
- ـــــ: مكتوب على الجبين (حكايات على هامش السيرة)، ط٢، الكرمة للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٥.

ب . المراجع

. إبراهيم خورشيد: مفهوم الثقافة، مجلة الفيصل السعودية، ٢٠ع، دار الفيصل الثقافية – مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٩٨٠.

. إبراهيم رماني: إضاءات في الأدب والثقافة والأيديولوجية، ط١، دار الحكمة، الجزائر ٢٠٠٩.

. إحسان عباس: فن السيرة، ط٤، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٨.

. آرثر أيزابرجر: النقد الثقافي – تمهيد مبدأي للمفاهيم الرئيسية، ت (وفاء إبراهيم – رمضان بسطاويسي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣.

. إسراء حسن جابر: النقد الثقافي بين الريادة والتنوير – رؤية فلسفية، مجلة الفلسفة، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية ٢٠١٧.

. جميل حمداوي: نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، ط١، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا ٢٠١٦.

. جورج ماي: السيرة الذاتية، ت (محمد القاضي – عبدالله صولة)، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٧.

. جون ستوري: النظرية الثقافية والثقافة الشعبية، ت (صالح أبو أصبع – فاروق منصور)، ط١، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة – أبو ظبي ٢٠١٤.

. حفناوي رشيد بعلي: مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، ط١، دار دروب، عمان ٢٠١١.

. خليل الشيخ: السيرة والمتخيل، ط١، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٥.

. رولان بارت: التحليل البنيوي للسرد، ت (حسن بحراوي وآخرون)، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط ١٩٩٢.

. سعد البازغي – ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي – إضاءة لأكثر من خمسين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ٢٠٠٢.

. سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي – النص والسياق، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ٢٠٠١.

. سمير خليل: فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، دار البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٥.
. شوقي ضيف: الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧.
. صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، ط١، المدى للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٣.
. عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، دار نوبار للطباعة، القاهرة ١٩٩٢.
. عبد الفتاح أحمد يوسف: القراءة النسقية – سلطة البنية ووهم المحايثة، ط١، الدار لعربية للعلوم، الجزائر ٢٠٠٦.
. ـــــــ: قراءة النسق وسؤال الثقافة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ٢٠٠٩.
. ـــــــ: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٠.
. عبدالله إبراهيم: المتخيل السردي – مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ١٩٩٠.
. عبدالله الغذامي – عبدالنبي إصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٤.
. عبدالله الغذامي: الكتابة ضد الكتابة، ط١، دار الآداب، بيروت ١٩٩١.
. ـــــ: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ٢٠٠٥.
. عمر مهيبل: من النسق على الذات، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٧.
. فيليب لوجون: السيرة الذاتية – (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ت (علي حلي)، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت ١٩٩٤.
. ماهر حسن فهمي: السيرة تاريخ وفن، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠.
. محمد الباردي: عندما تتكلم الذات – السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٥.
. محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠.
. محمد عبد المطلب: القراءة الثقافية، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠١٣.

. مها فائق العطار: السيرة الذاتية في الأدب العربي، مجلة الموقف الأدبي، ٣١٣ع، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٧.

. نيكلاس لومان: مدخل إلى نظرية الأنساق، ت (يوسف حجازي)، منشورات الجمل، بغداد ٢٠١٠.

. يحيى إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٥.